الكتاب الجامع للفضائل

(٥٠)

فضل وفوائد الابتلاء

الشيخ/ندا أبو أحمد

فضل وفوائد الابتلاء

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله -تعالى-، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

تعريف البلاء.

الحكمة من البلاء.

أنواع الابتلاء.

من هم أهل البلاء الحقيقي؟.

مشاهد من الابتلاء

١- مشهد التوحيد ٢- مشهد العبودية ٣- مشهد الحكمة

٤- مشهد الرحمة ٥- مشهد الصبر ٦- مشهد الرضا

حقائق عن الابتلاء يجب الوقوف عليها

الحقيقة الأولى: أن المؤمن في الدنيا دائما في بلاء إلى أن يلقى الله -عز وجل-.

الحقيقة الثانية: أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا مسافر والسفر كله مشقة.

الحقيقة الثالثة: أن الدنيا دار ابتلاء واختبار.

الحقيقة الرابعة: يخبرنا عنها ابن القيم – رحمه الله – كما في عدة الصابرين ص ٩٠ .

الحقيقة الخامسة: فليعلم أهل البلاء أن الراحة الحقيقية والنعيم المقيم ليس في هذه الدار إنما هو في جنة العزيز الغفار.

مَا يُهَوِّنُ عَلَى الْمُبْتَلَى (أسباب الصبر على البلاء)

١- أن يعلم أن القدر جرى بها، وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يخلق، فلا بد منها.

٢- أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به الله

٣- أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلا.

٤- ومما يهون على أهل البلاء ويخفف عنهم ألم المصيبة، أن يتذكروا نعم الله عليهم فإذا أخذ فكم أعطى، وإذا ابتلى فكم عافى.

٥ – أن يتهم نفسه ويعلم أن هذا البلاء بما كسبت يداه، وأنه أُوتيَ مِنْ قِبَلِ نفسه.

٦- تذكر الموت وسرعة الانتقال عن هذه الدار.

٧- أن يعلم المبتلى أن مصيبته مهما عظمت فهي هينة يسيرة طالما أنها ليست في الدين.

٨- أن يعلم المبتلى أن البلاء قد يكون أكبر من هذا، لكن الله خفف عنه فابتلاه بما هو عليه الآن، فيحمله هذا على الحمد والرضا.

٩- ومما يهون على المبتلى ويخفف عنه ألم المصيبة: أن يعلم أن الله سيكافئه في الدنيا بأفضل مما فقد إذا صبر واحتسب.

١٠- ومما يهون على المبتلى: أن يعلم يقينًا أن هذا البلاء سيعقبه فرج قريب، وأن مع العسر يسرا.

١١- ومما يهون على المبتلى ويرفع عنه الآلام والأحزان: الاستعانة بالصلاة.

١٢- ومما يهون على المبتلى ويخفف عنه ألم المصيبة، التأسي بأهل المصائب.

١٣- ومما يفرج عن المبتلى: الدعاء لكشف الهموم والغموم.

فَضْلُ وَفَوَائِدُ وحِكَمُ الْابتلاء

١- الابتلاء علامة على محبة الله لك.

٢- البلاء يُمَحِّصُ ما في القلبِ.

٣- البلاء يفرق بين الطيب والخبيث.

٤- إظهار المحب من المبغض، أي أنه يظهر المحب لمن نزل به البلاء أو المبغض له.

٥- الابتلاء يرقق القلب.

٦- معرفة قيمة وقدر العافية.

٧- القيام بالعبودية على اختلاف الأحوال (استخراج عبودية الضراء).

٨- معرفة عز الربوبية وقهرها.

٩- معرفة ذل العبودية.

١٠- الإخـلاص لله -عز وجل-.

١١- الإنـابـة (وهي الرجوع إلى الله -عز وجل- والإقبال عليه).

١٢- التضرع والدعـاء.

١٣- رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم.

١٤- البلاء يُخَلِّص العبد من الكبر والعجب والفخر والخيلاء والتجبر.

١٥- من فوائد الابتلاء لمن صبر عليه: أنه يدخل في عداد الصابرين فيحظى بفضائلهم.

١٦- ومن فوائد الابتلاء: أن الله يكفر به السيئات، ويغفر به الزلات.

١٧- تحصيل الأجر والثواب.

١٨- الرفعة في الدرجات:

١٩- حصول رضا الله - تعالى-.

٢٠- دخول جنة الرحمن.

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل وفوائد الابتلاء

إلى كل مَنْ أُبْتُلِي ببلاء في جسده أو في ماله أو في ولده. إلى من أصابته الكربة بفقد الأحبة.

إلى كل محزون ومكروب. إلى كل مريض أو فقير معدوم. إلى كل مهموم ومغموم.

حبيبي في الله.... أهدي إليك هذه الرسالة لأمسح بها دمعك، وأخفف بها عنك حزنك وهمك، فهي بمثابة التسلية والعزاء لكل محزون مصاب، تشرح صدره وتجلب صبره وتهون خطبه وتخفف أمره، ويلحظ بها ثوابه على الصبر وأجره. وقبل أن نشرع في الموضوع هناك بعض الأمور ينبغي أن نقف عليها كتعريف البلاء والحكمة منه، وأنواع الابتلاء، ومن هم أهل الابتلاء الحقيقي؟ ثم مشاهد من الابتلاء. وحقائق يجب الوقوف عليها، وأخيرًا فضل وفوائد الابتلاء- وهذا هو مقصود الرسالة-.

أسأل الله أن يجعلها سببًا لرفع الهموم والغموم عن كل محزون أو مكروب ..... **اللهم آمين**.

أولًا: تعريف البلاء:

البلية والبلوى والبلاء كلها واحد، والجمع: البلايا

وبلاه: جرّبه واختبره. **وبلاه الله:** اختبره.

والبلاء يكون بالخير والشر

قال القرطبي – رحمه الله – في الجامع لأحكام القرآن (١/٣٨٧) قال أبو الهيثم: البلاء يكون حسنًا، ويكون سيئًا، وأصله المحنة، والله ﷻ يبلو عبده بالصنيع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها ليمتحن صبره، فقيل للحسن بلاء، وللسيئ بلاء. اهـ. (حكاه الهروي)

وعلى هذا فالابتلاء يكون تارة بالخير وتارة بالشر كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٨)

أي: اختبرناهم بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة وبالعافية وبالمرض.

قال ابن جرير-رحمه الله – في تفسيره (٩/١٠٤) عن هذه الآية: أي: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا، والدعة والسعة في الرزق، وهي الحسنات التي ذكرها جل ثناؤه، ويعنى بالسيئات الشدة في العيش والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم، وينيبوا إليه ويتوبوا عن معاصيه. اهـ.

وقال ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: أي: اختبرناهم بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء.

وجاء في كتاب الشكر لابن أبى الدنيا ص١٣٢ ، وعدة الصابرين لابن القيم ص١٦١ عن عبد الملك ابن أبجر –رحمه الله –: ما من الناس إلا ومبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره.

وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥).

فالله ﷻ يبتلى عبده بالنعمة والصنع الجميل ليمتحن شكره ويبتليه بالبلوى التي يكرهها من مرض أو محنة أو عاهة أو هم أو غم أو نقمة وذلك ليمتحن صبره.

جاء في" تفسير ابن جرير الطبري :١٧/٢٥" عن ابن عباس – رضي الله عنهما– قال في هذه الآية: **نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام والطاعة والمعصية، والهدى والضلالة.**

وذكر ابن جرير أيضًا عن ابن عباس–رضي الله عنهما– أنه قال: **نبتليكم بالرخاء والشدة وكلاهما بلاء.**

وذكر أيضًا الطبري في" تفسيره :١٧/٢٥" عن ابن زيد – رحمه الله – أنه قال: نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك كيف شكرهم فيما يحبون؟ وكيف صبرهم فيما يكرهون؟

قال الأصفهاني –رحمه الله– في هذه الآية: إنه اختبار الله تعالى للعباد، تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا مضارات المحنة والمنحة جميعًا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، مضارات المنحة أعظم البلاءين. اهـ.

والمؤمن إذا ابتلي بالنعمة فشكر، أو ابتلي بالنقمة فصبر، فهو على خير كبير.

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث صهيب بن سنان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ".**

يقول ابن كثير–رحمه الله– في" تفسيره :٤/٥٤٤" عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾

(الفجر:١٥-١٧)

يقول الله تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسَّع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك إكرام له من الله وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان، **كما قال تعالى:**

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:٥٥،٥٦)

وكذلك في الجانب الآخر، إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له **قال الله تعالى: (كَلَّا)** أي ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، وإنما المدارُ في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيًا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر. أهـ.

الحكمة من البلاء

والحكمة من البلاء تظهر في قوله تعالى: ﴿الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت:١-٣).

قال أحد السلف: الناس ما داموا في عافية فهم مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه.

وجاء في كتاب "جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى" للغرناطي :٢/١٣٩": قال بعضهم: " لولا حوادث الأيام لم يعرف صبر الكرام ولا جزع اللئام ".

البلاء أمر حتمي ولابد: فالبلاء سنة كونية من سنن الله ﷻ قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٢)

فالواضح وضوح الشمس أن الإنسان في هذه الدار غرض للنوائب ورمية للحوادث، فإن سلم في نفسه (أي: من الموت) أصيب في أعضائه، وإن عوفي في أعضائه امتُحن بفقد أحبائه، وإن قدرت له السلامة من ذلك، فالهرم من ورائه. (جنة الرضا:٣ / ٥).

وقد دلت الأدلة على أن المصائب والآلام والأمراض ملازمة للبشر، وأنه لابد لهم منها لتحقيق العبودية لله، **قال تعالى:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة ١٥٥ -١٥٧).

والمصيبة تشمل كل ما يسوء المرء.

فقد أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن عمر ﷺ **أنه انقطع شِسْع نعله فاسترجع[1]، وقال كل ما ساءك فهو مصيبة.**

جاء في" النهاية :٢ / ٤٧٢": **والشِسع** هو أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الإصبعين.

وقال ابن كثير رحمه الله – في تفسيره (٢/١٥٥) في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦)

أي: لابد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه، أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء. اهـ.

١- فاسترجع: أي أنه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (سورة الحديد: ٢٠).

فإذا تيقنت أن الدنيا حقيرة عند خالقها، وأنه لابد فيها من الأكدار والمنغصات، حملك هذا الصبر على ما تلقاه فيها وتوطين النفس على ذلك.

أنـــواع الابتـــلاء

وأنواع الابتلاءات عديدة: إما في النفس، أو المال، أو الأهل، أو الدين، وغير ذلك؛ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٥)

قال القرطبي- رحمه الله- كما في" الجامع لأحكام القرآن :٢/١٧٣":

بين الله تعالى أن البلاء يكون: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ أي: خوف العدو والفزع في القتال.

قال ابن عباس وقال الشافعي: هو خوف الله ﷻ.

﴿وَالْجُوعِ﴾ يعني: المجاعة بالجدب والقحط. في قول ابن عباس.

وقال الشافعي: هو الجوع في شهر رمضان.

﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ بسبب الانشغال بقتال الكفار.

وقيل بالجوائح المتلفة وقال الشافعي: بالزكاة المفروضة.

﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ ***قال ابن عباس:*** بالقتل والموت في الجهاد، ***وقال الشافعي:*** يعنى بالأمراض.

﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ ***قال ابن عباس:*** والمراد قله النبات وانقطاع البركات. ***وقال الشافعي:*** المراد موت الأولاد، ولد الرجل ثمرة قلبه.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي: بالثواب على الصبر، والصبر أصله الحبس وثوابه غير مقدر.

فائدة: **البلاء قد يكون نعمة في حق البعض، ونقمة وعذاب في حق آخرين.**

ونستطيع أن نتعرف على حال كل منهما بالنظر إلى المبتلى، وما هو عليه من صلاح أو خلافه، فإن كان المبتلى صالحًا قائمًا بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فهذا البلاء علامة على محبة الله لهذا العبد.

كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رضي الله عنه: **" إن الله ﷻ إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع ".**

والبلاء ينزل عليه إما لتكفير سيئاته-كما سيأتي بيانه- أو لرفع درجاته.

فقد أخرج ابن حبان والحاكم عن أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها ".** (صحيح الجامع:١٦٢٥)

- أما إذا كان المبتلى مُعْرِضًا عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فما يصاب من مصيبة أو تحل به بليه إلا لفسقه، فقد قال الله ﷻ في أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر: ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٣)

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢)

- وهناك نوع ثالث وهو رجل خلط عملًا صالحًا بآخر سيئًا، فهو رجل على خير ولكن وقع في الذنوب وأسرف على نفسه؛ فلمحبة الله تعالى لهذا العبد، فإنه يعجل له العقوبة في الدنيا، فيبتليه بأنواع البلايا حتى يلقى الله وما عليه خطيئة. **قال تعالى:** ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (الشورى: ٣٠)

أخرج الترمذي بسند صحيح من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" إذا أراد الله بعبده الخير، عجل له العقوبة في الدنيا ".**

وفي مسند الإمام أحمد يقول النبي ﷺ: **" فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة ".**

والمرء يبتلى على قدر دينه.

فالبلاء درجات أشده للأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل من عباد الله الصالحين.

فقد أخرج ابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: **دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي، فوق اللحاف. فقلت. يا رسول الله ما أشدها عليك! قال: "إنا كذلك. يُضَعَّفُ لنا البلاء ويُضَعَّفُ لنا الأجر" قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: ثم الصالحون. إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يُحَوِّها ،وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء "**

وأخرج ابن ماجه وابن أبى الدنيا في المرض والكفارات والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك عليه قطيفة، فوضع يده فوق القطيفة فقال: ما أشد حماك يا رسول الله !! قال: إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر! ثم قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: الأنبياء، قال: ثم من؟ قال العلماء؟ قال: ثم من؟ قال الصالحون، كان أحدهم يبتلى بالقمل حتى يقتله، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ولأحدهم أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء ". (صحيح الجامع:٩٩٥).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والألباني عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: **قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال:" الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة ".**

والسر في ذلك أن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشد، ومن ثم ضُعفَ حد الحر على العبد.

وقيل لأمهات المؤمنين: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (الاحزاب:٣٠).

قال ابن الجوزي-رحمه الله-: وفي الحديث دلالة على أن القوى يحمل ما حمل، والضعيف يرفق به، فالبلايا على مقادير الرجال **وهم درجات:** -

- منهم من ينظر إلى أجر البلاء فيهون عليه البلاء.
- وأعلى من ذلك درجة من يرى أن هذا تصرف المالك في ملكه فيسلم ولا يعترض
- وأرفع منه من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء.
- وأنهى المراتب من يتلذذ به لأنه من اختياره نشأ (اختيار الله). اهـ بتصرف.

قال الشيخ الألباني -رحمه الله- في الصحيحة عقب هذه الأحاديث ما نصه:

وفي هذه الأحاديث دلالة صريحة على أن المؤمن كلما كان أقوى إيمانًا، ازداد ابتلاء وامتحانًا، والعكس بالعكس، ففيها رد على ضعفاء العقول والأحلام الذين يظنون أن المؤمن إذا أصيب ببلاء: كالحبس أو الطرد أو الإقالة من الوظيفة ونحوها أن ذلك دليل على أن المؤمن غير مرضي عند الله تعالى!! وهو ظن باطل فهذا رسول الله ﷺ وهو أفضل البشر، كان أشد الناس حتى الأنبياء بلاء، فالبلاء غالبًا دليل خير، وليس نذير شر. ***كما يدل ذلك أيضًا حديث:*** **" إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط ".** (رواه الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه)

وقال الشيخ الألباني أيضًا -رحمه الله-: وهذا الحديث يدل على أمر زائد على ما سبق، وهو أن البلاء إنما يكون خيرًا، وأن صاحبه يكون محبوبًا عند الله تعالى، إذا صبر على بلاء الله تعالى، ورضي بقضاء الله ﷻ .اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله -: فمن ابتلاه الله بالبأساء والضراء والبأس وقدر عليه رزقه[1]، فليس ذلك إهانة له، بل هو ابتلاء وامتحان، فإن أطاع الله في ذلك كان سعيدًا، وإن عصاه في ذلك كان شقيًا، كما كان مثل ذلك سببًا للسعادة في حق الأنبياء والمؤمنين، وكان شقاء وسببًا للشقاء في حق الكفار والفجار. اهـ. (قاعدة في المحبة ص١٦٧)

يقول ابن القيم -رحمه الله -: إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء (الأمراض) التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه.

كما قال النبي ﷺ: **" والذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ".**

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته – سبحانه وتعالى – ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأقرب إليهم فالأقرب، يبتلى المرء حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة. اهـ.

ومن هنا نعلم أن قضاء الله تعالى كله خير، وفي قضائه من الحكمة التي تعجز عن إدراكها البشر، *يقول ابن القيم -رحمه الله- كما في شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص٤٣٢:* ولو ذهبنا نذكر ما يطلع عليه أمثالنا من حكمة الله في خلقه وأمره؛ لزاد ذلك على عشرة آلاف موضع، مع قصور أذهاننا، ونقص عقولنا ومعارفنا، وتلاشيها وتلاشي علوم الخلائق جميعهم في علم الله كتلاشي ضوء السراج في عين الشمس. وهذا تقريب وإلا فالأمر فوق ذلك. اهـ.

تنبيه:

الله تعالى يعطي الأجر والثواب على قدر إيمان العبد وشدة بلائه، فكلما كان البلاء أشد؛ كان الأجر أعظم. ***وذلك للحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :***

" إن عظم الجزاء مع عظم البلاء.... ". الحديث

١- قدر عليه رزقه: أي ضيق عليه رزقه.

ويدل على هذا أيضًا ما أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه دخل على النبي ﷺ فقال: **يا رسول الله، إنك توعَكُ وعْكًا شديدًا: فقال:" أجل إني أوعَك كما يوعكُ رجلان منكم". قلت: ذلك بأن لك أجرين. قال:" أجل: ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى – شوكة فما فوقها – إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها ".**

من هم أهل البلاء الحقيقي؟

يقول ابن القيم كما في عدة الصابرين ص١٨:

فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم. فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنه وهذا من أعظم البلاء. اهـ بتصرف.

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفًا باله قليل الرجاء

مشاهد من الابتلاء

رحم الله ابن القيم حيث ذكر في كتابه الفوائد: إنه إذا جرى على العبد قدر يكرهه فإن له فيه ستة مشاهد يمكن إيجازها فيما يأتي:

١. مشهد التوحيد:

وجملته أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنه بقدر الله، وما شاء الله فعل.

٢. مشهد العبودية:

وخلاصته أنك عبد لله تجرى عليك أحكام سيدك ومولاك، ولا تملك إلا السمع والطاعة والخضوع والإنابة والاستسلام والإذعان والانقياد لله رب العالمين.

٣. مشهد الحكمة:

وغايته أن الله ﷻ أحكم الحاكمين، وكل شيء عنده بحكمة بالغة، وأنت قد تجهل الحكمة من وراء ذلك، وقد تغفل عن الخير واليسر الذي يأتي قبله وبعده ولله در من قال: **"أن لله عطايا في صورة بلايا** " وقد يبتلي الله ﷻ العبد الصالح ببلاء ثم ابتلاء ثم مصيبة ثم يخرجه من ذلك كله على أوسع ما في الدنيا

من مال وسلطان وعز وجاه، فيكون قد نال من حكمة البلاء من التدريب والرضا، والتعلق بالله ﷻ والدار الآخرة واحتقار الدنيا وما فيها مما يجعله في حماية من أن تفتنه الدنيا عندما تأتيه.

ومثال ذلك: نبي الله يوسف –عليه السلام– ابتلاه الله بكراهية إخوته له، ثم إلقاؤه في البئر، ثم يباع في السوق، ثم يعمل في بيت عزيز مصر، ثم محنة امرأة العزيز، والنسوة اللاتي قطعن أيديهن، ثم يخرج من السجن فيولى خزائن الأرض يتصرف فيها كيف يشاء بأمر الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف: ٥٦)

٤- مشهد الرحمة:

وفحواه أن الله ﷻ أرحم بنا من رحمة الأم بولدها فهو – سبحانه وتعالى – أرحم الراحمين

قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(فاطر: ٢)

ومن رحمته أن البلاء جاءك في هذا الوقت بالذات، وأتى كما كان ولم يكن أشد مما كان، وأنه لم يكن في دينك، فكل مصيبة تهون عدا المصيبة في الدين التي تؤدى إلى جهنم وبئس المصير.

٥- مشهد الصبر:

ومضمونه أن الله ﷻ ابتلانا ليرى مدى صبرنا، وليميز الصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، والطيب من الخبيث **قال تعالى:** ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩)

٦- مشهد الرضا:

وجملته أن قدر الله ﷻ يجرى على عباده، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط، وأن الصبر مع الرضا، والصبر مع الشكر والحمد أعلى مراتب الصبر، وهو الصبر المأجور بغير حساب. فإذا ابتلي العبد المؤمن اقتضى إيمانه أن يريد ما أراد الله تعالى، ويرضى بما يقدر، إذ لو لم يكن كذلك كان خارجًا عن حقيقة العبودية.

حقائق عن الابتلاء يجب الوقوف عليها

الحقيقة الأولى: أن المؤمن في الدنيا دائما في بلاء إلى أن يلقى الله -عز وجل-:

ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن البراء بن عازب ﷺ: أن النبي ﷺ قال عن المؤمن- عندما ينزل في القبر- **" فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن ..... ".** الحديث

وهذا دليل على أن المؤمن دائمًا معرض للفتن والاختبارات والابتلاءات إلى أن يموت.

وصدق أبو فراس حيث قال:

المرءُ رهْنُ مصائبٍ لا تنقضي حتى يُوسَّدَ جِسْمُهُ في رَمْسِهِ

فَمُؤجلٌ يَلْقى الرَّدى في غَيْره وَمُعَجَّلٌ يَلْقى الرَّدى في نَفْسِهِ

(أدب الدنيا والدين ص٤٦٣)

وأخرج البخاري عن أبى قتادة بن ربعي الأنصاري ﷺ: **أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة فقال: "مستريح ومستراح منه " قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه ؟ قال: " العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ".**

وموت المؤمن راحة له من غموم دار الدنيا وهمومها وآلامها كما في الحديث:

" إذا حُضِرَ المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضيًا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا حتى يأتون به باب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا.

وصدق النبي ﷺ حيث قال كما في صحيح مسلم: **" الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".**

فإذا علم المؤمن هذه الحقيقة يهون عليه كثيرًا من وقع المصاب وألم الغم ونكد الهم؛ لأنه يعلم أنه أمر لابد منه فهو من طبيعة هذه الحياة.

وأخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **" مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الرياح تُفِيئُه، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرْز[1] لا تهتز حتى تُسْتَحْصَد ".**

١- الأَرْز: بفتح الهمزة وإسكان الراء وبعدها زاي، وهو شجر معروف يشبه شجر الصنوبر، وهو شجر معتدل صلب لا يحركه هبوب الريح. وقيل: هو شجر الصنوبر (انظر: النهاية :٣٨/١)، (شرح صحيح مسلم للنووي :١٥٧/١٧)، (الفتح: ١٠٧/١٠).

وروى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في تاريخه[1] عن سعيد بن المسيب –رحمه الله– أنه قال: دخلنا مقابر المدينة مع عليٍّ بن أبى طالب ﷺ فقام على قبر فاطمة –عليها السلام– وانصرف الناس، فقال:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وإن بقائي بعدكم لقليل

وإن افتقادي واحدًا بعد واحد ... دليل على ألا يدوم خليل

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليل

الحقيقة الثانية: أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا مسافر والسفر كله مشقة:

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – كما في الفوائد ص ٢٧٠: الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبنيّ على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من أنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير. اهـ.

قل متاع الدنيا قليل:

ومع هذا السفر الذي لا يخلو من المشقة، فإننا على يقين من أن الدنيا بكل ما فيها متاع زائل.

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠)

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٧٧)

فالاستمتاع بالدنيا قليل، ومتعتك بها قليل من قليل، وثواب الآخرة خير وأفضل لمن اتقى المعاصي وأقبل على الطاعات. فالله تعالى مثل لنا الدنيا كزرع أعجب الزراع نباته ينمو شيئًا فشيئًا حتى يكتمل ثم يهيج فتراه مصفرًا جاهزًا للحصاد فهو موقوت الأجل ينتهي عاجلًا ويبلغ أجله قريبًا ثم يكون حطامًا وينتهي شريط الحياة بمشهد الحطام ويا لها من نهاية بالحياة الدنيا جميعها.

فما هي إلا حطام أو كظل وسراب.

روى الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: **" مالي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها ".**

فالدنيا كما وصفها أحدهم فقال:

أحلام نوم، أو كظلٍّ زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

١- لم يطبع بعد

يقول ابن القيم –رحمه الله–: أشبه الأشياء بالدنيا الظل، تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض، تتبعه لتدركه فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بالدنيا: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩)

وأشبه الأشياء بالدنيا المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له.

قال بعضهم:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجُوَّعُ
أراها وإن كانت تحب فإنها ... سحابةُ صيفٍ عن قليل تقشع

فالمؤمن هو الذي يعلم أنه مسافر إلى الله، وأن كل ما هو من حطام الدنيا فسوف يتركه لا محالة. إما بالفقر أو بالموت، **كما قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام: ٩٤)

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: **أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال:" كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل ".** (صحيح الجامع:٤٥٧٩).

وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – يقول: **إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.**

قال جماعة من العلماء في تفسير هذا الحديث:

لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تغتر بها، فإنها غرارة خداعة، ولا تتعلق إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها إلا بما يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله، وبالله فاستعن.

وأخرج ابن ماجه والطبراني في الكبير والحاكم عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: **جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني عل عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال:" ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس ".** (صحيح الجامع:٩٢٢)

وأخرج الترمذي عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماءٍ ".** (صحيح الجامع:٥٢٩٢)

وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاهُ، وعالمًا أو متعلمًا ".** (صحيح الجامع:٣٤١٤)

وأخرج الإمام مسلم و أحمد والترمذي عن عبد الله بن الشخير﵁ قال: **أتيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ: " ألهاكم التكاثر" قال: "يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟ ".** (صحيح الجامع:٨١٣٢).

وأخرج مسلم عن أبى سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء ".**

فالدنيا فانية زائلة، وكل ما فيها يتغير ويحول ويفنى ويزول، لأنها إلى الآخرة طريق وهي مزرعة للآخرة على التحقيق، إنها ألم يخفيه أمل، وأمل يحققه بإذن الله عمل، وعمل يقطعه الأجل، وعندها يجزى كل امريء بما فعل، إنها الدنيا كلما حلت أوحلت، وكلما كست أوكست، وكلما دنت أودنت، وكم من ملك رفعت له علامات، فلما علا مات.

هـي الأيــام لا يبقى عـزيز وساعات السرور بها قليلة

إذا نشر الضياء عليكم نجم وأشرق فارتقب يومًا أفولـه

إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرت يومًا أحزنت شهورًا، وإن متعت كثيرًا منعت طويلًا، لا يبقى لها حبور ولا يدوم فيها ثبور.

فلا بد أن نعلم بأن النعم زائرة وأنها لا محالة زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر بفراقها إذا أدبرت، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحًا حتى تعقب بفراقها ترحًا، فعلى قدر السرور يكون الحزن.

والمفروح به اليوم هو المحزون عليه غدًا، ومن بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره، ومن علم أن كل نائبة إلى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح: ٢٣).

بل إن المؤمن يعلم أن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن ما يزرعه هنا فسوف يحصده هناك، **ولذا قال تعالى:** ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (البقرة: ١٩٧).

وقـفـة:

حضر أحد الرؤساء صلاة الجمعة، وبه مرض لا يحتمل معه تطويل الخطبة، ثم صعد الخطيب المنبر، فقال: الحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد: فإن الدنيا دار ممر، والآخرة دار مقر، فخذوا لمقركم من ممركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفي عليه أسراركم وأخرجوا الدنيا من قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فما أبلغ هذه الخطبة وأفصحها وأوجزها، فممر الدنيا والله قصير وأغنى الأغنياء فيها فقير، فعلى الإنسان أن يستيقظ من رقدة الغفلة وينتبه من السكرة، ويقلع حب الدنيا من قلبه، فإن العبد إذا أغمض عينه وتولى، تمنى الإقالة، فيقال له: كلا.

أخرج الطيالسي والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **" قال لي جبريل: يا محمد عِشْ ما شئت فإنك ميِّت، وأحبِبْ من شئت فإنك مُفارقه، واعمل ما شئت، فإنك مُلاقيه".**

(صحيح الجامع:٤٣٥٥)

فحين يصل المؤمن إلى تلك الحقيقة الكبرى ويوقن أنه موقوف بين يدي الله – جل وعلا – في يوم مقداره خمسون ألف سنة، فإن الدنيا لو سجدت بين يديه لركضها برجليه طامعًا في ساعة واحدة يناجي فيها ربه لعل الله أن يكتب له بها النجاة من تلك النار التي أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت. وألف عام حتى اسودت، فهي الآن سوداء قاتمة. فيعلم المؤمن أن كل نعيم دون الجنة سراب، وكل عذاب دون النار عافية. فمن بذل وسعه في التفكير التام، وعلم أن هذه الدار رحلة فجمع للسفر رَحْلَه. ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات، ثم إلى الدنيا، ثم إلى القبر، ثم إلى الحشر ثم إلى دار الإقامة الأبدية، فدار الإقامة هي دار السلام من جميع الآفات. وهي دار الخلود.

وليعلم أن مقدار السير في الدنيا يسير ويقطع بالأنفاس، ويسير بالإنسان سير السفينة لا يحس بسيرها وهو جالس فيها، ***وكما قال الشاعر:***

إنمـــا هـــذه الحيـاة متـاع ... فالغويّ الشقيّ من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التي أنت فيـها

ولا بد له في سفره من زاد، ولا زاد إلى الآخرة إلا التقوى، فلا بد من تعب الإنسان والحرص على العمل الصالح ليجمع زاده لئلا يقول وقت السير: ﴿رب ارجعون﴾. فيقال: ﴿كلا﴾.

فلينتبه الغافل من كسل مسيره، فإن الله تعالى يريه في قطع مسافة سفر آيات يرسلها تخويفًا لعباده. لئلا يميلوا عن طريقهم المستقيم، ونهجهم القويم، فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة فرأى ما يخاف منه، فليرغب إلى الله بالرجوع إليه مما ارتكبه من السبل فيتوب من معصيته ويبكي من قسوته.

ولقد قال بعض السلف:

احذروا دار الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، فإنهما يفرقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرق بين العبد وربه، فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الأجل، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر.

الحقيقة الثالثة: أن الدنيا دار ابتلاء واختبار:

فالدنيا دار امتحان وابتلاء واختبار، وليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر، فما يظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب، وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، وجمعها فهو للذهاب، والعجب كل العجب ممن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضر النفع.

قال أبو الحسن التهامي ذامًّا للدنيا:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوًا من الأقذاء[1] والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلّب في الماء جذوة نار

(وفيات الأعيان :٣/٨٣)

لا يكاد الإنسان يفرح حتى يلاحقه ما يحزنه، ولا يفتأ يغتني حتى يدق بابه الفقر، أمنه في الدنيا مشوب بالخوف، وصحته محفوفة بالمرض، آلامه تفوق لذاته، وتعبه فيها يغلب راحته، تلك هي الدنيا، وهذا حال البشر فيها.

قال أبو الفرج ابن الجوزي-رحمه الله -: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء، انزعاجًا يزيد على الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت. وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم. **كما قال القائل:**

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة وميت ومولود وبشر وأحزان

وذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال...أو....أو... إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة..

فالدنيا جبلت على النقص والبلوى، فإن أضحكت يومًا أبكت أيامًا، وإن سرت شهرًا أحزنت دهرًا.

فالدنيا لا تخلو من بلية ولا تصفو من محنة ورزية.

فما رأينا ولا سمعنا عن أحد لم يصب في هذه الدنيا مصيبة، ولم ينج أحد من الهم والحزن والغم والكرب، لا من الأنبياء والمرسلين ولا من الأولياء والصالحين، ولا من سار على طريقهم واقتفي آثارهم.

فها هو نبي الله نوح –عليه السلام – قال الله تعالى عنه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنبياء: ٧٦)

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (الصافات:٧٦).

وهذا نبي الله أيوب قال تعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)

ولقد لبث بلاؤه ثمان عشرة سنة.

---

١ - القذى: ما يقع في العين وما ترمي به، والجمع أقذاء وقُذِيّ. (لسان العرب ص ٣٥٦٢).

ونبي الله يونس قال تعالى عنه: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧-٨٨)

ونبي الله موسى، قال تعالى عنه: ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ (طه: ٤٠)

وقال تعالى عنه هو وأخيه هارون: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ (الصافات: ١١٥).

وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين – صلى الله تعالى عليهم جميعًا وعلى خاتمهم نبينا محمد ﷺ –أصيبوا بالهم والكرب من تكذيب الكافرين لهم وإيذائهم، وجاهدوا في الله وصبروا، **قال الله تعالى عنهم:** ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٤)

وقال تعالى أيضًا: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (آل عمران: ١٨٤)

فرحم الله من اهتدى بهم واقتفي آثارهم وأحسن اتباع النبي محمد ﷺ وأطاعه كما أمر الله ﷻ فمن رحمه الله تعالى وفضله ومنه أنه قال في كتابه الكريم: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٩-٧٠).

كما قال أبو الفرج بن الجوزي- رحمه الله-:

ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تُعْتَوَر فيها الأمراض والأكدار، ولم يضق العيش فيها على الأنبياء والأخيار، فآدم يعاني المحن إلى أن خرج من الدنيا، ونوح بكى ثلاثمائة عام، وإبراهيم يكابد النار وذبح الولد، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره، وموسى يقاسي فرعون ويلقى من قومه المحن، وعيسى بن مريم لا مأوى له، إلا البراري في العيش الضنك، ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين يصابر الفقر، وقتل عمه حمزة، وهو من أحب أقاربه إليه، ونفور قومه عنه ....

قال أبو العتاهية:

من يعش يكبر ومن يكبر يمت ... والمنايا لا تبالي من أتت

نحن في دار بلاء وأذى ... وشقاء وعناء وعنت

منزلٌ ما يثبت المرء به ... سالمًا إلا قليلًا إن ثبت

وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (سورة البلد:٤)

قال سعيد ابن أبى الحسن – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. (تفسير ابن جرير:٣٠ /١٩٧)

ومن أمثال العرب: **من حدث نفسه بطول البقاء فليوطن نفسه على المصائب.** (جنة الرضا:٣/ ٢٩).

وقال أبو جعفر بن خاتمة – رحمه الله –:

هو الدهر لا يبقى على عائذ بـه فمن شاء عيشًا يصطبر لنوائبه

فمن لم يصب في نفسه فمصابه بفقـد أمـانيــه وفقــد حبـائبـــه

(جنّة الرضا:٦/٣)

وقال علي بن محمد الدباغ – رحمه الله –: إن طال عمرك فجعت بأحبابك، وإن قصر فجعت بنفسك (المصدر السابق).

وذكر ابن الجوزي في صيد الخاطر وتحت عنوان:" كم من حكمة في الحرمان" فقال –رحمه الله–:

نزلت بي شدة، وأكثرت من الدعاء أطلب الفرج والراحة، وتأخرت الإجابة فانزعجت النفس وقلقت فصحت بها: ويلك تأملي أمرك، أمملوكة أنت أم حرة مالكة؟ أمدبِّرة أم مُدبَّرة؟ أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبار، فإذا طلبت أغراضك ولم تصبري على ما ينافي مرادك فأين الابتلاء؟ وهل الابتلاء إلا الإعراض، وعكس المقاصد. فافهمي معنى التكليف، وقد هان عليك ما عز، وسهل ما استصعب، فلما تدبرت ما قلته، سكنت بعض السكون.

فقلت لها: وعندي جواب ثان، وهو أنك تقتضين الحق بأغراضك، ولا تقتضين نفسك بالواجب له وهذا عين الجهل، وإنما كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس؛ لأنك مملوكة والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق المالك، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى٠فسكنت أكثر من ذلك السكون.

فقلت لها: وعندي جواب ثالث، وهو أنك استبطأت الإجابة، وأنت سددت طرقها بالمعاصي، فلو قد فتحت الطريق أسرعت، كأنك ما علمت أن سبب الراحة التقوى أو ما سمعت قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق:٢،٣) **وقال تعالى:** ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٤) أو ما فهمت أن العكس بالعكس؟ آه من سكر غفلة صار أقوى من كل سكر في وجه مياه المراد يمنعها من الوصول إلى زرع الأماني. فعرفت النفس أن هذا حق فاطمأنت.

فقلت: وعندي جواب رابع، وهو أنك تطلبين ما لا تعلمين عاقبته، وربما كان فيه ضررك. فمثلك كمثل طفل محموم، يطلب الحلوى، والمدبر لك أعلم بالمصالح. وكيف وقد قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١٦) فلما بان الصواب للنفس في هذه الأجوبة زادت طمأنينتها

فقلت لها: وعندي جواب خامس، وهو أن المطلوب ينقص من أجرك ويحط من مرتبتك، فمنع الحق لك ما هذا سبيله عطاء منه لك. ولو أنك طلبت ما يصلح آخرتك كان أولى لك، فأولى لك أن تفهمي ما قد شرحت. فقالت: لقد سرحت في رياض ما شرحت، فهمت إذ فهمت. اهـ.

فمن يظن أن الدنيا طريق مفروش بالورد، وأرادها خالية من المصاعب والمتاعب والآلام فقد أخطأ في ظنه، وخالف الواقع.

الحقيقة الرابعة: يخبرنا عنها ابن القيم - رحمه الله - كما في عدة الصابرين ص ٩٠ حيث يقول:

لابد أن يعلم المرء أن الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له، ولعز لا ذل معه وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه بالفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل، والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف.

وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده؛ لأنه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ففاتهم في محله، وأكثرهم لم يظفر بما طلب من ذلك، والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه، والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – إنما جاءوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملك فمن دونهم. اهـ.

فمن صبر على مكاره الدنيا وبلائها عوّضه الله خيرًا منها جنة نعيمها مقيم وملك لا يبلى ولا يزول. فمن صبر على مرارة الدنيا نال حلاوة الآخرة.

وصدق النبي ﷺ حيث قال كما في صحيح مسلم من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات". (أحمد والترمذي وهو في صحيح الجامع:٣١٤٧)

فصبرًا يا أهل البلاء فغمسة في الجنة تنسى كل شقاء وهم وبلاء، وغمسة في النار عياذًا بالله تنسى كل لذة ونعيم.

أخرج مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" يؤت بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في جهنم صبغة[1]، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط ؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله، ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدة قط ".**

فتأمل كيف أنست الأول شدة العذاب ما مضى عليه من النعيم في الدنيا، وكيف أن الثاني قد نسى ما مرّ به من شدائد ومصائب لما ذاق طعم الجنة.

فسوف تنسى– أخي المبتلى – كل ما كنت تعانيه من آلام وأسقام إذا دخلت دار السلام.

يقول ابن القيم – رحمه الله – كما في" إغاثة اللهفان :١٧٥/٢":

ومن رحمتِه سبحانه بعباده أن نَغَّصَ عليهم الدُّنيا وكدَّرها، لئلَّا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النَّعيم المُقيم في دارِه وجواره، فساقهُم إلى ذٰلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنَعهُم ليُعطيَهُم، وابتلاهُم ليُعافيَهُم، وأماتَهم ليحييَهُم. اهـ.

١- والصَبغة – بفتح الصاد – أي يغمس غمسة. (شرح صحيح مسلم:١٥٥/١٧)

الحقيقة الخامسة: فليعلم أهل البلاء أن الراحة الحقيقية والنعيم المقيم ليس في هذه الدار إنما هو في جنة العزيز الغفار:

فمن يتأمل في كتاب الله يعلم أن أهل الجنّة كانوا أهل حزن في الدنيا، وكان يصيبهم الوصب والنصب واللغوب، **قال تعالى عنهم:** ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر: ٣٤،٣٥).

كانوا معرضين للهموم والأحزان، فالحزن بسبب نقص الطعام والشراب واللذات وقلة التنعم، ونقص الجمال والأجساد والرزق فهموم الدنيا كثيرة، لذلك أبدلهم الله دار المقامة التي فيها الدوام والبقاء والخلود حيث الصحة التي ليس معها مرض، والشباب الذي لا يتسرب إليه العجز والشيخوخة، والنعيم الذي لا يخالطه بؤس أبدًا.

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة – رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ قال: **" إذا دخل أهلُ الجنّةِ الجنّة ينادي منادٍ: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا ".**

وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" من يدخل الجنّة ينعم، ولا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ".**

وأخرج البخاري و مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧)".**

أول زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر:

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

" أول زمرة يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر. ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة: لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الأُلُوَّةُ[1] أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء ".

وفي رواية للبخاري ومسلم: **" آنيتهم فيها الذهب، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحُسْنِ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشية ".**

١- الأُلُوَّةُ: عود الطيب.

آخر أهل الجنّة دخولًا الجنة:

أخرج البخاري و مسلم عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنّة دخولًا الجنّة: رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله ﷻ له: اذهب فادخل الجنّة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع، فيقول يارب وجدتها ملأى، فيقول الله ﷻ له: اذهب فادخل الجنّة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي، أو تضحك بي وأنت الملك ؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقول: " ذلك أدني أهل الجنّة منزلة ".

أدنى أهل الجنة منزلة:

وأخرج الإمام مسلم عن المغيرة بن شعبة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: " سأل موسى –عليه السلام– ربه، ما أدنى أهل الجنّة منزلة ؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنّة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم[1] فيقول له: أترضي أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت[2]، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر ".

خيمة من لؤلؤة مجوفة للمؤمن

أخرج البخاري و مسلم عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: " إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوَّفة طولها في السماء ستون ميلًا، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا ".

أفضل نعيم أهل الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم.

فقد أخرج الإمام مسلم عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله –تعالى–: تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجّنا من النار. فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ".

ثم يحل عليهم الرضوان من الرحمن

فقد أخرج البخاري و مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا ".

---

١ - أخذاتهم: حظهم من النعيم والرضوان.
٢ - أردت: اصطفيت واخترت.

فلنصبر على بلاء الدنيا حتى نفوز بهذا النعيم المقيم، جنّة عرضها السموات والأرض بناؤها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة وملاطها المسك الأزفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، فيها غرف يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام. **فاللهم ارزقنا الجنة برحمتك يا أرحم الراحمين**

مَا يُهَوِّنُ عَلَى الْمُبْتَلَى
(أسباب الصبر على البلاء)

وهناك أمور تُهَوِّن على المُبتلى وترفع عنه الآلام والأحزان، وتجعله في رضا تام،
ومن هذه الأمور:

١ - أن يعلم أن القدر جرى بها، وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يخلق، فلا بد منها:

فإنه ليس لأحد مفر عن أمر الله وقضائه، ولا محيد له عن حُكمه النافذ وابتلائه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١)

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢)

قال ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: ما أصابكم أيها الناس من مصيبة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بجدوبها وقحوطها، وذهاب زرعها وفسادها ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ بالأوصاب والأوجاع والأسقام ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني: إلا في أمّ الكتاب، وهو اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ يقول: من قبل أن نبرأ الأنفس، يعني من قبل أن نخلقها. اهـ.

فعلى العبد أن يعلم أن ما نزل به فهو وفق قدر معلوم، وقضاء محتوم، وحكمة أزلية. فجميع المصائب مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله الخليقة، ويبرأ النسمة.

وقال السعدي-رحمه الله- في تفسير الآية السابقة: ما أصاب من مصيبة في النفس، والمال والولد، والأحباب، ونحوهم إلا بقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علمه وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، فإذا آمن العبد أنها من عند الله فرضي بذلك وسلم لأمره، فله الثواب الجزيل والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، ويهدي الله قلبه فيطمئن ولا ينزعج عند المصائب، ويرزقه الله الثبات عند ورودها، والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخره الله له يوم الجزاء من الثواب. اهـ.

وقال جل وعلا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١١)

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – :" بإذن الله " بأمر الله، يعني عن قدرته ومشيئته".

(تفسير ابن كثير: ٨/ ٣٦٣)

وقال ابن جرير –رحمه الله– : وفي قوله تعالى:" **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** " يقول:" ومن يصدّق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهدي قلبه"، يقول: " يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه". اهـ. (تفسير ابن جرير: ٢٨/ ١٢٣)

وقال علقمة –رحمه الله– في تفسير هذه الآية: " هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم ". (تفسير ابن جرير: ١٢٣/٢٨، تفسير ابن كثير: ٨/ ١٦٣)

وأخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما– قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

" كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ".

أخرج أبو داود عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **" إن أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب قال: رب وماذا أكتب، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ".**

وفي لفظ عند الترمذي: **" اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد ".**

وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن عباس– رضي الله عنهما– قال: **كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال:" يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف ".** (صحيح سنن الترمذي: ٢٤٤٠).

أخرج البخاري معلقًا ووصله النسائي عن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: **" يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاق " .**

قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله–: **" جف القلم بما أنت لاق "** أي: نفذ المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ، فبقي القلم الذي كتب به جافًا لا مداد فيه، لفراغ ما كتب به. (فتح الباري: ١١٩/٩)

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: **" جف القلم بما هو كائن "**

وفي لفظ عند الترمذي: **" جف القلم على علم الله ".**

ولهذا لما جيء بسعيد بن جبير –رحمه الله– إلى الحجاج (ليقتله) بكى رجل، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: لما أصابك، قال، فلا تبك، كان في علم الله أن يكون هذا، ثم تلا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢)

(طبقات ابن سعد: ٢٦١/٦) (سير أعلام النبلاء: ٣٣٧/٤)

فإذا علم المبتلى هذا بأن هذه المصيبة مقدرة عليه في أم الكتاب وأنه لابد منها، فجزعه لا يرد المصيبة، بل يزيده بلاءً وغمًّا وهمًّا.

قال بعض الحكماء يقول: الجزع لا يرد الفائت، ولكن يسر الشامت.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ:" إنك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور". (الرضا لابن أبي الدنيا ص٢٩) (منهاج العابدين للغزالي ص ٢٣٩)

وقال يحيي بن معاذ –رحمه الله–: ابن آدم، ما لك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت؟ وما لك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت. فقضاء الله نافذ كالسيف وأمره واقع لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه فعلى العبد أن يسلم ويصبر ويرضى.

كان بعض الحكماء يقول: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم.

فهو يريد بذلك قول النبي ﷺ ***الثابت في صحيح مسلم:*** **" إنما الصبر عند الصدمة الأولى ".**

وقال بعض الحكماء: " المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان" (العقد الفريد: ٣٣٨/٣، جنة الرضا: ١٤/٣)

وكان بعض السلف قد عزى مصابًا فقال له: " إن صبرت فهي مصيبة واحدة، وإن لم تصبر فهما مصيبتان.

فالعاقل هو الذي يعلم أن المصيبة إذا وقعت فلا فائدة من الاعتراض على أمر الله. فالمؤمن العاقل هو الذي يعلم أن الخير كل الخير (في ذلك الوقت) في الفوز بثواب الرضا والصبر على هذا البلاء. فليس هناك أسوأ من العبد الذي يخرج بالبلاء والذنب المترتب على تسخطه على أمر الله وليس هناك أفضل من العبد الذي يغتنم لحظات البلاء للفوز بالأجر والرضوان والاقتراب من جنة الرحمن – جل وعلا –.

وثقتْ نفسُ عارفٍ فاطمأنت ... رضيت بالذي قضي فتهنَّت

لاح نورُ الهدى لها مع يقينٍ ... فاستضاءت بذاك ثم استكنَّت

فرمت باللذيذ من كل عيشٍ ... وإلى أقرب مالك المُلْكِ حنَّت

فيا أيها المصاب:

إياك وكلمة: " **لو** "، فإذا كانت إصابتك بهذه المصيبة بسبب من الأسباب: كحادث سيارة أو حريق بالنار، أو سقوط من علو، أو بسبب عمل قمت به، فلا تفتح على نفسك بابًا للشيطان فتقول: لو فعلت كذا لكان كذا، ولو لم أفعل كذا لم يكن كذا ... إلى غير ذلك مما فيه اعتراض على القدر، وإنما عليك التسليم بما حصل، واليقين بأن ما أصابك فلابد من حصوله، وأنه ما شاء الله لابد أن يقع على وفق مشيئته – جل وعلا –.

ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: **" احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن " لو" تفتح عمل الشيطان ".** (رواه مسلم)

قال السعدي–رحمه الله–: " إذا أصاب العبد ما يكرهه فلا ينسب ذلك إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يسكن إلى قضاء الله وقدره، ليزداد إيمانه، ويسكن قلبه، وتستريح نفسه، فإن " لو" في هذه الحال تفتح عمل الشيطان بنقص إيمانه بالقدر، واعتراضه عليه، وفتح باب الهم والحزن المضعف للقلب. (بهجة القلوب ص٣٩)

ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه

كما قال عليه الصلاة والسلام: **" لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ".** (رواه أحمد من حديث أبي الدرداء ﷺ وهو في صحيح الجامع: ٢١٥٠)

وأخبر ﷺ أن قبول العمل الصالح موقوف على الإيمان بالقدر، وأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث زيد بن ثابت ﷺ عن النبي ﷺ قال: **" لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحد ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار."**

(صحيح الجامع:٥٢٤٤)

٢- أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه:

فالله ﷻ له الملك كله وله الحمد كله قد أذل الخلق وقهرهم، **كما قال تعالى:**

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦)

وهذا من تمام الإيمان بربوبية الله ﷻ ومشيئته النافذة فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فيتدبر العبد ذل العبودية، وكيف أنه عبد مدبر مقهور، ناصيته بيد ربه يتصرف فيه مالكه كيف يشاء ويبتليه بما شاء، وليس له إلا الرضا والتسليم، بل والمحبة والإيمان الكامل بكمال العدل والحكمة وإليه الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ (البقرة: ١٥٦)

فإذا ابتلي العبد المؤمن اقتضى إيمانه أن يريد ما أراد الله تعالى، ويرضى بما يقدر، إذ لو لم يكن كذلك كان خارجًا عن حقيقة العبودية.

ولا شك في أن تدبر هذه المعاني يخفف من ألم المصيبة، ويفتح على العبد أبوابًا من المعرفة بالله ﷻ والتسليم له، وكذلك المعرفة بنقص العبد وفقره وذله، والأول يورث كمال الحب لله ﷻ، والثاني يورث تمام الذل له وهما شقا العبادة، كمال الحب مع تمام الذل. ***كما يقال:*** العارف يخرج من الدنيا وما قضى وطره من شيئين ثناؤه على ربه ﷻ، وبكاؤه على نفسه.

ويقول ابن الجوزي -رحمه الله-:

والمؤمن الحق هو من إذا اشتد به البلاء زاد إيمانًا، فليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة ويتجنب المحظورات فحسب، إنما المؤمن هو الكامل الإيمان، لا يختلج في قلبه اعتراض ولا يساكن نفسه فيما يجرى وسوسة، وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه وقوى تسليمه، وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثرًا وسره لا يتغير لأنه يعلم أنه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته فإن اختلج في قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة كما جرى لإبليس.

والإيمان القوى يظهر أثره عند قوة البلاء، فلم يبق إلا التسليم للمالك والرضا بما قدر.

يقول ابن القيم -رحمه الله-:

فإنه سبحانه لا يقضى لعبده المؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، ساءه ذلك القضاء أو سرَّه، فقضاؤه لعبده المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذَّ به في العاجل وكان ملائمًا لطبعه، ولو رزق العبد من المعرفة حظًّا وافرًا تعد المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغني، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة، فالراضي هو الذي يعد نعم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نعمة الله عليه فيما يُحبه. اهـ.

يقول ابن ناصر الدين الدمشقي [1]:

يجري القضاء وفيه الخير نافلة لمؤمـن واثـق بالله لا لاهي
إن جـاءه فـرحٌ أو نابـه ترحٌ في الحالتين يقول الحمد لله

- كما قال بعض السلف:

ارض عن الله في جميع ما يفعله بك، فإنه ما منعك إلا ليعطيك ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك. اهـ.

فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين، فتسقط من عينه.

قال أبو عثمان الحيرى -رحمه الله-:

منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حالٍ فكرهته، وما نقلني إلى غيره فسخطته.

اللهم ارزقنا نعمة الرضا

شهد الحسن - رحمه الله- رجلًا يقول: " اللهم ارض عني، فقال له الحسن: لو رضيت عن الله لرضي الله عنك! فقال له الرجل: وكيف أرضى عن الله؟! قال الحسن: إذا سُررت بالنقمة سرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، وسوف يرضى الله عنك.

فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها، فالرضا أعلى من مقام الصبر؛ لكن الصبر اتفقوا على وجوبه، والرضا اختلفوا في وجوبه؛ والشكر أعلى من مقام الرضا؛ فإنه يشهد المصيبة نعمة، فيشكر المُبْلِي عليها.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن عون أنه قال:

ارض بقضاء الله على ما كان من عُسر ويُسر؛ فإن ذلك أقل لغمِّك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا، حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء، كرضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضى الله في أمرك، ثم تتسخط إن رأيت قضاءه مخالفًا لهواك؟!

ولعل ما هويت من ذلك، لو وُفِّق لك، لكان فيه هلكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلة علمك بالغيب، وكيف تستقضيه؟ إن كنت كذلك ما أنصفك من نفسك، ولا أصبت باب الرضا.

وعن سليمان بن المغيرة قال: كان فيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك ولا أحط لوزرك من الرضا بقضائي. ولن تلقاني بعمل هو أعظم لوزرك، ولا أشد لسخطي عليك من البطر؛ فإياك يا داود والبطر.

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: إن الله إذا قضي قضاءً أحب أن يرضى العبد به.

١- هو الحافظ المحدث أبو عبد الله بن محمد المعروف بابن ناصر الدين الدمشقي (٧٧٧-٨٤٢ هـ)

فنعم للصبر والرضا، ولا للجزع والتسخُّط.

فقد أخرج الترمذي عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط ". – *وفي رواية:* ومن جزع فله الجزع.**

فأنفع الأدوية للمصاب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وإن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب، ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه، فقد شهد على نفسه بكذبه، وأسخط عليه محبوبه "

وذكر الغزالي في" الإحياء: ٤/ ٣٦٨":

لما قدم سعد بن أبي وقاص مكة، وقد كان كُف بصره، جاءه الناس يهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، **قال عبد الله بن السائب:** أتيته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفني. وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم. فذكر قصة، قال في آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد عليك بصرك؟! فتبسم وقال: يا بُني قضاءُ الله سبحانه عندي أحسن من بصري.

فعليك أخي المبتلى أن تحب ما أحب الله لك. وترضى بما رضيه لك.

قال مطرف –رحمه الله–: أتيت عمران بن حصين ﷺ يومًا، فقلت له: إني لأدع إتيانك لما أراك فيه، ولما أراك تلقى (يعني: من شدة المرض) فقال: فلا تفعل، فوالله إن أحبه إليّ أحبه إلى الله تعالى" .

وقال محمد بن علي –رحمه الله–: " ندعو الله فيما نحب، فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما أحب".

(الرضا عن الله ص ٧٩).

فالحمد لله العادل فيما قدره وقضاه، القادر القاهر بما أمر به من أمره وأمضاه، فمن رضي بذلك أنعم عليه فأرضاه، ومن سخطه فله السخط، ولقد أبعده وأقصاه، فبؤسًا للذين لقضائه يسخطون، وتعسًا لمن بأحكامه يتبرمون، وهنيئًا لمن لأفعاله يُسلمون، ولحكمه يستسلمون، فهم بُكل قضائه راضون. وعلى كل حالٍ قائلون: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾

(البقرة ١٥٦،١٥٧).

يقول ابن ناصر الدين الدمشقي:

سبحان من يبتلي أُناسًا ... أحبهم والبلاء عطاءُ
فاصبر لبلوي وكن راضيًا ... فإن هذا هو الدواءُ
سلِّم إلى الله ما قضاه ... ويفعل الله ما يشاءُ

٣- أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلا:

فاعلم أيها المبتلى ... أن الله سبحانه أرحم بك من نفسك ومن والديك ومن الناس أجمعين.

قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:١٢)

وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤)

وهذا إخبار منه سبحانه بأنه كتب الرحمة على نفسه تفضلًا منه بذلك، من غير أن يوجبها عليه موجب أو يقترحها عليه مقترح. **وقال جل وعلا:** ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)

وقال أيضًا إخبارًا عن دعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (غافر:٧)

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣)

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي ". - *وفي رواية:*** **" إن رحمتي سبقت غضبي ".**

وأخرج البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: **" قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسعى إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا. وهي تقدر ألا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها ".**

فإذا علمت أن الله أرحم بك من نفسك ومن والدتك، دعاك هذا إلى الاستسلام لما يقضيه، والصبر على تدبيره، لعلمك أن ما يصيبك هو عين الرحمة بك؛ لأن الذي قضاه عليك أرحم الراحمين.

وأخرج الإمام أحمد وأبو نعيم وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: **كنا عند رسول الله ﷺ جلوسًا فضحكَ، فقال:" أتدرون مما أضحك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم فقال:" عجِبْتُ لأمْرِ المؤمِنِ، إنَّ اللَّهَ لم يَقْضِ له قَضاءً إلَّا كان خيرًا له ".** (صحيح الجامع:٣٩٨٥)

قال ابن عطاء الله: " ليخفف عليك البلاء علمك بأنه سبحانه هو المبتلى، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار " (جنة الرضا:٣٣/٣)

يقول ابن الجوزي -رحمه الله-:

المؤمن في الشدة ينبغي أن يراعي الساعات، ويتفقد فيها أحوال النفس، ويتلمح الجوارح مخافة أن يبدو من اللسان كلمة أو من القلب تسخط، فكأن قد لاح فجر الأجر فانجاب ليل البلاء، ومدح الساري بقطع الدُّجَي، فما طلعت شمس الجزاء إلا وقد وصل إلى منزل السلامة، ولقد رأيت كثيرًا من المغفلين يظهر عليهم السخط بالأقدار، وفيهم من قل إيمانه فأخذ يعترض، وفيهم من خرج إلى الكفر ورأى أن ما يجري كالعبث، وقال: ما فائدة الإعدام بعد الإيجاد والابتلاء ممن هو غني عن أذانا؟ ويحك أحضر عقلك واسمع ما أقول: أليس قد ثبت أن الحق سبحانه مالك وللمالك أن يتصرف في ملكه كيف يشاء؟ أليس قد ثبت أنه حكيم والحكيم لا يعبث؟

فلا تعترض على الله بعقلك، ولا تنكر الحكمة إذا لم تتوصل إليها بفهمك، فلم يبق إلا أن نضيف العجز عن فهم ما يجري إلى أنفسنا ونقول: هذا فعلُ عالم حكيم، ولكن لا يبين لنا معناه، ولا نفهم حكمته ولم تتوصل عقولنا إلى سببه، وليس هذا بعجيب فإن موسي عليه السلام خفي عليه وجه الحكمة في نقض السفينة الصحيحة وقتل الغلام الجميل، فلما بَيَّن له الخضر وجهة الحكمة أذعن، فلنكن مع الخالق على الأقل كموسي مع الخضر، فنسأل الله ﷻ عقلًا مسلمًا يقف على حده، ولا يعترض على خالقه ومُوجدِه، ثم الويل للمعترض، أيَرُد اعتراضه ما فات فما يستفيد إلا الخزي، نعوذ بالله ممن خُذل. اهـ.

فعلى المبتلى أن يعلم أن في عقبى هذا البلاء من الشفاء، والعافية، والصحة، وزوال الألم، ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا البلاء ومرارته، فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره.

قال تعالى في حديث الأفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (النور: ١١)

وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(البقرة: ٢١٦)

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله- كما في الفوائد ص٢٠٠:

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد؛ فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب؛ فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد.

وقال الله تعالى: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩)

وفي مثل هذا قال القائل:

لعلّ عتبك محمودٌ عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعِلَلِ

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره.

وقال الحسن -رحمه الله-:

لا تكرهوا البلايا الواقعة والنقمات الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولربك أمر تؤثره فيه عطبك.

قال التنوخي -رحمه الله-: كان يقال: المحن آداب الله ﷻ لخلقه، وتأديب الله يفتح القلوب والأبصار.

وقال كذلك: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الكاتب يصف الفضل بن سهل، ويذكر تقدمه وعلمه وكرمه، وكان مما حدثني به أنه برئ من علة كان فيها، فجلس للناس وهنوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم قال الفضل: إن في العلل لنعمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: فهي تمحيص للذنب، وتعرُّض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وتذكير بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد الخيار.

فليعلم كل من أصيب بمصيبة سواء في نفسه أو ماله أو ولده أن هذا وقع برضا مالكه وخالقه، فيجب عليه أن يرضى بما يرضى به السيد، ويعاقب نفسه إذا جزعت ويقول لها: أما علمت أن هذا لابد منه فما وجه الجزع؟! وإنما هي ساعة كأن لم يكن ما كان، ومن تلمح العواقب هان عليه مرارة الدواء.

يا صاحب الهم إن الهم منفرج ... أبشر بخير فإن الفارج الله

اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه ... لا تيأسن فإن الكافي الله

إذا بُليت فثق بالله وارض به ... فإن الذي يكشف البلوى هو الله

الله يُحدث بعد العسر ميسرة ... لا تجزعن فإن الصانع الله

والله ما لك غير الله من أحدٍ ... فحسبك الله في كلٍ لك الله

وصدق القائل حيث قال:

فرب أمر محزن لك في عواقبه الرضا ... ولربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا

كم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومحروم من دواء حرمانه هو شفاؤه. كم من خير منشور وشر مستور، ورب محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب. **قال الله تعالى:** ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)

لا تكره المكروه عند حلوله ... إن العواقب لم تزل متباينة

كم نعمة لا يستهان بشكرها ... لله في طي المكاره كامنة

فلابد للمصاب أن يُحسن الظن بالله ﷻ ويعلم أن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا (٥) إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ (الشرح: ٥، ٦)

وقال ﷺ في وصيته لابن عباس – رضي الله عنهما-: **" واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا ".** (رواه الإمام أحمد عن أنس وهو في السلسلة الصحيحة:٢٣٨٢)

وأعلم أيها المبتلى ... أن الله تعالى لم يقدر عليك هذه المصيبة ليهلكك بها ولا ليعذبك، إنما ابتلاك ليمتحن صبرك ورضاك عنه.

لما أرادوا قطع رجل عروة بن الزبير قالوا له: لو سقيناك شيئًا كي لا تشعر.

قال: إنما ابتلاني ليرى صبري.

وروى ابن أبي الدنيا قال: لما أدخل إبراهيم التيمي سجن الحجاج رأي قومًا مقرنين في السلاسل، إذا قاموا قاموا معًا، وإذا قعدوا قعدوا معًا فقال: يا أهل بلاء الله في نعمته، ويا أهل نعمة الله في بلائه إن الله ﷻ قد رآكم أهلًا ليبتليكم فأروه أهلًا للصبر، فقالوا: من أنت رحمك الله ؟ قال: أنا ممن يتوقع من البلاء مثل ما أنتم عليه فقال أهل السجن: ما نحب أنَّا أخرجنا.

ولاشك أن مع الابتلاء يحصل الكرب والهم، لكن شتان بين كرب المبتلى الراضي وبين كرب المبتلى الساخط، **قال الله تعالى:** ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤)

ومعني هذه الآية: أن المسلمين كما يُصيبهم الجراح والقتل كذلك يحصل لأعدائهم في الحرب، فهم في ذلك سواء، ولكن المسلمين يرجون من الله المثوبة والنصر، وأعدائهم لا يرجون شيئًا من ذلك، فكلا الفريقين في الحرب والقتال سواء، لكنهم في الأجر والمثوبة والهدف والنية مختلفين، وكذلك الراضون والساخطون، المؤمنون المطمئنون والعاصون المتذبذبون في الابتلاء والفتن سواء، فكلا من الفريقين يبتلى، ولكن شتان بين ابتلاء الراضي المؤمن والساخط المسلم، فطالما أن الابتلاء واقع لا محالة لكلاهما، فلأن تكون مبتلى راضيًا مؤمنًا خير لك من أن تكون مبتلًا ساخطًا.

فالمصاب من حُرم الثواب.

فمن تحقق هذا وعرفه وشاهده بقلبه، علم أن نعم الله على عبده المؤمن في البلاء أعظم من نعمه عليه في الرخاء ***وهذا تحقيق معني الحديث الصحيح عن النبي ﷺ:*** **" لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له وليس ذلك إلا للمؤمن ".** (رواه الإمام مسلم).

وفي رواية أخري عند مسلم من حديث صهيب الرومي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" عجبًا لأمر المؤمن أن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر لكان خيرًا له ".**

ومن هاهنا كان العارفون بالله لا يختارون إحدى الحالتين على الأخرى، بل أيهما قدر الله رضوا به وقاموا بعبوديته اللائقة.

قيل ليحيي بن معاذ: **متي يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟** فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت.

وقال سعيد بن المسيب: قال لقمان لابنه:" لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته إلا جعلت في الضمير منك أن ذلك خير لك ". (الرضا لابن أبي الدنيا ص ٤٠)

وقال ابن ناصر الدين الدمشقي -رحمه الله-:

يجري القضاء وفيه الخير نافلة ... لمؤمن واثق بالله لا لاهي

إن جاءه فرج أو نابه ترح ... في الحالتين يقول: الحمد لله

(برد الأكباد عند فقد الأولاد ص٩)

فهنيئًا لأهل البلاء إذا صبروا واحتسبوا: فالصبر هو عبودية الضراء، وهو واجب باتفاق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كما في" تسلية أهل المصائب ص ١٧٣":

الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين.

ويقول ابن القيم -رحمه الله- أيضًا كما في مدارج السالكين: هذا والصبر واجب باتفاق العلماء وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، وقيل عن الرضا: إنه واجب، وقيل: هو مستحب، **وقد أجمع العلماء على أن حكمه لا يقل عن الاستحباب.**

وقال ابن القيم -رحمه الله- كما في" مدارج السالكين :١٥٢/٢":

وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: **نصف صبر، ونصف شكر.**

وقال أيضًا **: والصبر يتحقق بثلاثة أمور:**

١- حبس النفس عن الجزع.

٢- حبس اللسان عن الشكوى للخلق.

٣- حبس الجوارح عن فعل ما ينافي الصبر (عدة الصابرين ص ١٣، ومدارج السالكين:١٥٦/٢)

والصبر أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله أو على أقدار الله تعالى.

وهذه الأنواع ذكرها الحافظ في" الفتح :٣٢٥/١١" في شرحه للحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: **" حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"** ***وعند البخاري:*** **"حجبت"** بدل **"حفت"**

- **والمكاره:** هي كل ما تكرهه النفس ويشق عليها، وهذا يتناول مجاهدة النفس في القيام بالطاعات واجتناب المعاصي والصبر على المصائب، والتسليم لأمر الله فيها.

٤- ومما يهون على أهل البلاء ويخفف عنهم ألم المصيبة، أن يتذكروا نعم الله عليهم فإذا أخذ فكم أعطى، وإذا ابتلى فكم عافى:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨)

قال بعض السلف: حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

ومن أعظم هذه النعم، أن يتذكر كيف هداه الله للإسلام وجعله من أمة خير الأنام ﷺ

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف:٤٣)

وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨)

ثم يتذكر الإنسان نعمة السمع والبصر والسلامة من العلل والآفات، فمهما تذكر العبد هذه النعم، تسلى عن مصيبته ووجد شغلًا في حمد الله عليها، والقيام بواجب شكرها.

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن رجلا من أهل دمشق يسمى:" بأبي عبد ربه "وكان أكثر أهل دمشق مالًا، وأنه خرج مسافرًا، فأمسى إلى جانب نهر ومرعى، فنزل فيه، فسمع صوتًا يكثر حمدا لله في ناحية المرج. قال: فاتبعته، فوجدته رجلًا ملفوفًا في حصير، قال: فسلمت عليه، وقلت له: من أنت يا عبد الله؟ قال: رجل من المسلمين. فقلت له: فما هذه الحالة؟ قال: نعمة يجب عليّ شكرها. فقلت: كيف وأنت ملفوف في حصير، وأي نعمة عليك ؟! قال: إن الله خلقني، فأحسن خلقي، وجعل منشأي ومولدي في الإسلام، وألبسني العافية في أركاني، وستر عليّ ما أكره ذكره، فمن أعظم نعمة ممن أمسى في مثل ما أنا فيه؟ فقلت :رحمك الله، لعلك أن تقوم معي إلى منزلي، فأنا نزول على النهر هاهنا بإزائك. قال :ولم؟ قلت :لتصيب شيئا من الطعام، ونعطيك ما يغنيك عن لبس الحصير. قال: ما لي في ذلك من حاجة. فأبى أن يسير معي، فانصرفت وقد تقاصرت عندي نفسي ومقتها، وقلت :لم أخلّف بدمشق رجلا أعظم أثرًا في قلبي منه. (وذكره أيضا ابن الجوزي في كتابه" بحر الدموع")

فلا تكن ممن يذكر المصائب وينسى النعم.

أخرج ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات وابن جرير في تفسيره عن الحسن البصري -رحمه الله-

في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: ٦) قال: يذكر المصائب وينسى النعم.

وتأمل قصة عروة بن الزبير –**رحمه الله**– كيف كان صبره؟ وكيف كان استحضاره لنعم الله عليه؟ وهو في أشد المحنة وتسليه بما أبقاه الله عليه، وخلاصتها أن عروة أصيب بمرض الأَكِلَة[1] في رجله وهو مسافر، فقرر الطبيب قطعها من منتصف الساق فقطعها، ثم أصيب في ذلك السفر بموت ابنه محمد حيث رفسته بغلة، فجعل عروة يقول – وقد اجتمعت عليه المصيبتان في آن واحد –:

" اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة، ولئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت فقد عافيت، وما ترك جزأه من القرآن في تلك الليلة."

(أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات، وفي سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٢٩)

فالذي دفعه إلى هذا أنه لم ينس نعم الله عليه.

***قال ابن القيم –رحمه الله–:* تهوين البلية بأمرين:**

أحدهما: أن يعد نعم الله عليه، وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها، وأَيِسَ من حصرها . هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه . بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه . كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضي وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال". اهـ. (مدارج السالكين: ١٦٧/٢)

وانظر إلي أيوب عليه السلام لما مكث في بلواه ثماني عشرة سنة فقالت له امرأته: يا أيوب. لو دعوت ربك لفرج عنك. فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟

(قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٥٩)

وأنشد محمود الوراق –رحمه الله–:

يا أيها الظالم في فعله والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

(الشكر لابن أبي الدنيا ص ٩٥)

وقال بكر المزني –رحمه الله–: " إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك، يعني لتعلم قدر نعمة الله عليك في البصر خاصة. (الشكر لابن أبي الدنيا ص١٥٧)

١ـ الأَكِلَة: بفتح الهمزة وكسر الكاف: داء يقع في العضو فيأكل منه. (اللسان: ٢٢/١١)

٥ -أن يتهم نفسه ويعلم أن هذا البلاء بما كسبت يداه، وأنه أُوتيَ مِنْ قِبَلِ نفسه:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠)

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء:٧٩)

قال ابن القيم -رحمه الله-:

وهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة.

وأخرج الترمذي والطبراني في المعجم الصغير من حديث البرّاء ﷺ أن النبي ﷺ قال:

" ما اختلج[1] عرق ولا عين إلا بذنب، وما يدفع الله عنه أكثر ". (صحيح الجامع: ٣٠٨)

وفي رواية: **" وما يعفو الله عنه أكثر".**

قال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة.

فما زالت عن العبد نعمة، ولا حلت به نقمة، وتحول الله له من حال العافية إلى حال البلاء إلا بكسبه وما صنعت يداه"

أخرج ابن ماجه عن ابن عمر-رضي الله عنهما- قال: **" أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تُدْرِكُهُن، لم تظهر الفاحشةُ في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونةِ وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتُهُم بكتاب الله ويتخيروا ما أنزل الله إلا جعل اللهُ بأسهم بينهم ".**

وقال زيادُ بن الربيع: **" قلت لأُبيِّ بن كعب آيةٌ في كتاب الله قد أخذتني: قال: ما هي؟ قلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣) قال: ما كنتُ أراك إلا أفقهُ مما أرى، إنَّ المؤمن لا تصيبه عَثرةُ قدم ولا اختلاج عِرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر".**

وعن الحسن -رحمه الله-: **" أن عمران بن حصين ﷺ ابتلى في جسده فقال: ما أراه إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر وتلا: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾** (الشورى: ٣٠)

وهكذا يعود العبد باللوم على نفسه وينزه ربه عن الظلم، فيحسن الظن بربه، راضيًا بقضائه وقدره.

١- الاختلاج: الحركة والاضطراب (النهاية:٢/٦٠)

وقال شاعر الزهد بالأندلس " أبو عمران المرتلي " المتوفى سنة ٦٠٤ هـ:

شكوت دائي إلى طبيبي فقـال: إني بـه علـيـم
أدواء أدوائك المعاصي فأنت من أجلهـا سقيم
وبالمتاب الشفاء منها إني بمن تاب لي رحيم

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٦٥)

فإذا علم الإنسان بهذا فعليه أن يُسرع حينئذ بالتوبة والاستغفار، عسى أن يغفر له الله زلاته ويتوب عليه.

٦- تذكر الموت وسرعة الانتقال عن هذه الدار، فالموت ما ذُكِر في شدة وضيق إلا وسعه، ولا ذُكِر في سعة إلا ضيقها.

فقد أخرج ابن حبان والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **أكثروا ذِكرَ هاذم اللَّذات: الموت، فإنه لم يذكره أحدٌ في ضيقٍ من العيش إلا وسَّعه عليه، ولا ذكره وهو في سعةٍ إلا ضيَّقها عليه** ". (صحيح الجامع:١٢١١)

وقوله: " **هاذم اللذات** " بالذال، أي: **قاطع اللذات**". (لسان العرب: ١٢/ ٦٠٦)

والمراد أن العبد إذا ذكر الموت وهو في حالة ضيق من مرض أو غيره، هان عليه ذلك وتوسع عليه ما هو فيه من الضيق؛ لعلمه بسرعة الارتحال عنه وموافاته لثوابه وأجره. وإذا ذكره في حال سعة ضاقت عليه؛ لعلمه بالانتقال عنها وسرعة زوالها، وهذا خير له من أن ينهمك في الملذّات وينسى الموت وما وراءه.

وقال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: " إذا كنت من الدنيا فيما يسوؤك فاذكر الموت، فإنه يسهل عليك ". (الفرج بعد الشدة: لابن أبي الدنيا ص ٤٢)

وقال الماوردي -رحمه الله- في الأسباب التي تسهل المصيبة: " فمنها استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء، وتقضي المسار، وأن لها آجالًا منصرمة، ومددًا منقضية، إذ ليس في الدنيا حال تدوم، ولا لمخلوق فيها بقاء ". (أدب الدنيا والدين ص ٤٦٠)

٧- أن يعلم المبتلى أن مصيبته مهما عظمت فهي هينة يسيرة طالما أنها ليست في الدين:

فالمصيبة في الدين من أعظم المصائب في الدنيا والآخرة وهي نهاية الخسران الذي لا ربح معه والحرمان الذي لا عوض بعده.

قال السفاريني –رحمه الله –: المصائب تتفاوت، فأعظمها مصيبة الدين، نعوذ بالله من ذلك فإنها أعظم مصيبة، والمسلوب من سُلب دينه.

وكل كسر لعل الله جابره وما لكسر قناة الدين جبرانُ

ولذلك كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء فيقول: "**ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا**". (رواه الترمذي والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع:١٢٦٨)

فإذا رأيت إنسانًا لا يبالي بما أصابه في دينه من ارتكاب الذنوب والخطايا، ومن فوات الجمعة والجماعة وأوقات الطاعة، وولوغٍ في المحرمات ومن انتهاك للحرمات، وانتهاك لحدود الله وتجاوز لها، فاعلم أنه المصاب حقًا، ثم اعلم أخرى أنه ميت لا يحس بألم المصيبة ولا يشعر: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (النمل: ٨٠)

وبعد مصيبة الدين، المصيبة في النفس ثم في الأهل ثم في المال، وكلها تتفاوت وتتدرج إلى أن تكون المصيبة في الشوكة وفي قطع شسع النعل، وهذا في غاية الخسة كما تعلمون.

يقول شريح – رحمه الله – كما عند ابن أبي الدنيا: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله ﷻ عليها أربع مرات :أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع، لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني.

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الدين إن ضيعت من عوض

قال عمر ﷺ يقول كما ذكر ذلك الغزالي في الأحياء (٤/٢٢٩): **ما ابتليت ببلاء إلا كان لله عليّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، إذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه.**

فكل مصيبة في دنيا الإنسان قد تُعوض بخير منها، أما مصيبة الدين فخسارة لا تُعوض، ولذلك حين خُير يوسف عليه السلام بين أن يُصاب في دنياه فيُسجن ويكون من الصاغرين، وأن يُصاب في دينه فيصبو إلى النسوة ويكون من الجاهلين، **كما قالت امرأة العزيز للنسوة:**

﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢)

حين خُير يوسف عليه السلام بين الأمرين كان لابد أن يختار مصيبة الدنيا، **فقال:**

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣)

(الإيمان والحياة د/يوسف القرضاوي ص١٤٨)

قال رجل لسهل بن عبد الله التستري – رحمه الله–: دخل لص بيتي وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله تعالى، قال: كيف وقد سرق متاعي، قال: فاحمد الله، فكيف لو دخل الشيطان قلبك فأفسد عليك دينك؟ فماذا كنت تصنع؟

– **وروي أن امرأة من العرب:** مرت بابنين لها وقد قتلوا فقالت: الحمد لله رب العالمين، ثم قالت:

وكل بلوى يصيب المرء عافية ... ما لم يصيب يومًا يلقي الله في النار

– كانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع، فذكر لها ذلك، فقالت: ما أصاب بمصيبة فأذكر معها النار إلا صارت في عيني أصغر من الذباب.

فاحمد الله أنك لم تكن مصابًا في دينك؛ بفقد الإيمان، أو الاتصاف بالنفاق، أو بالتقصير في واجب، أو الوقوع في محرم، فهذه هي المصيبة على الحقيقة.

٨- أن يعلم المبتلى أن البلاء قد يكون أكبر من هذا، لكن الله خفف عنه فابتلاه بما هو عليه الآن، فيحمله هذا على الحمد والرضا:

قال شريح القاضي –رحمه الله–: " إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أحمده إذ لم تكن أعظم منها، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني" (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٠٥)

وقال حبيب بن عبيد –رحمه الله–: "وما ابتلى الله عبدًا ببلاء إلا كان لله عليه فيه نعمة ألا يكون ابتلاه بأشد منه" (الشكر لابن أبي الدنيا ص ١٣١)

ومن أمثال العرب: " إن في الشر خيارًا ". ومعناه: بعض الشر أهون من بعض

قال الزمخشري: " يضرب في تهوين المصيبة علمًا أن في المصائب ما هو فوقها ".
(المستقصي في أمثال العرب: ١/٤١٣)

وقال الغزالي –رحمه الله–: كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها، إذ مقدورات الله لا تتناهى، فلو ضعّفها الله وزادها ماذا كان يردّه ويحجزه، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا.... فإذن ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حقّ التأمل في سوء أدبه ظاهرًا وباطنًا في حقّ مولاه؛ لكان يرى أنه يستحقّ أكثر مما أُصيب به عاجلًا وآجلًا، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر، ومن استحقّ عليك أن يقطع يديك، فترك إحداهما فهو مستحق للشكر.
(الإحياء:٤/ ١٢٨)

وعن عبد العزيز بن أبي روّاد –رحمه الله– قال: رأيت في يد محمد بن واسع –رحمه الله– قرحةُ، قال: فكأنه رأى ما شقّ عليّ منها، فقال لي: تدري ماذا لله عليّ في هذه القرحة من نعمة؟ فأسكت، قال: إذ لم يجعلها على حَدَقتي (أي: عيني) ولا على طرف لساني، ولا على طرف ذكري. فهانت عليّ قرحته.
(الشكر لابن أبي الدنيا ص ١٤٠)

٩- ومما يهون على المبتلى ويخفف عنه ألم المصيبة: أن يعلم أن الله سيكافئه في الدنيا بأفضل مما فقد إذا صبر واحتسب:

إن من كرم الله تعالى على عباده الذين يبتليهم أنه يكافئهم في الدنيا ويعوضهم على ما فقدوه، ومن هذا القبيل، **ما حدث لأيوب عليه السلام:**

فقد أخرج البزار وأبو يعلى وابن حبان والحاكم: عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **" إن أيوب نبي الله عليه السلام لبث في بلائه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان. فقال أحدهما لصاحبه: تعلم، والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يُذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (ص:٤٢) فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المُبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض ".**

وهكذا أخي المبتلى ...

تجد العبرة والتسلي والتعزي بما جرى لهذا النبي الكريم، حيث بقي أسير مرضه ثمانية عشر عامًا، حتى إن الناس ملوا زيارته، لطول المدة، فلم يبق معه إلا رجلان من إخوانه يزورانه، فلما أراد الله له الشفاء وتمت المدة المقدرة للمرض شفاه الله بسبب يسير، لكن جعل الله أثره عظيمًا، فمنه السبب ومنه النتيجة والأثر. ثم أنعم الله على أيوب عليه السلام بالأموال العظيمة من الذهب والفضة، إثابة له على صبره مع ما ادخره له في الآخرة من عظيم الثواب.

٢. ما حدث لإبراهيم عليه السلام عندما ابتلاه الله بذبح ابنه فوجده طائعًا لأمره، ففداه بذبحٍ عظيم، وأمره ببناء البيت الحرام

٣. ما حدث لأم سلمة لما مات زوجها فصبرت واحتسبت، عوضها الله خيرًا منه: " رسول الله ﷺ "

٤. ما حدث لأمر سليم زوجة أبي طلحة حين صبرت على فقد ولدها، عوضها الله خيرًا من ذلك ولدًا جاء من نسله تسعة أولاد كلهم يحفظون القرآن.

٥. ويعقوب ﷺ غاب عنه ولده يوسف سنين عديدة وهو يصبر، ويكابد الآلام، ثم يفقد ابنه الثاني، ويصبر ويفقد بصره ولم يفقد صبره، ويعوضه الله أن يعودوا إليه جميعًا ويجمع شمل أولاده، ويعود إليه بصره.

٦. ويوسف ﷺ يسجن ظلمًا ويصبر، ثم يخرج يملك خزائن الأرض.

٧. وموسى ﷺ يغيب عن أمه صغيرًا وعن قومه كبيرًا فيصبر، فتكون له العاقبة.

٨. والنبي محمد ﷺ يخرجه قومه من بلده . وهي أحب البلاد إليه . فيصبر ويحتسب ولكنه يرجع إليها عزيز الجانب.

١٠ - ومما يهون على المبتلى: أن يعلم يقينًا أن هذا البلاء سيعقبه فرج قريب، وأن مع العسر يسرا:

فانتظار الفرج يهون المصيبة ويعين على الصبر عليها. فعلى المبتلى أن يحسن الظن بربه تعالى، ويعلم أن الله سيجعل له بعد الضيق مخرجًا وبعد الكرب فرجًا. **قال تعالى:** ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥، ٦)

وأخرج الإمام أحمد عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال لابن عباس –رضي الله عنهما-: " **واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا** ". (الصحيحة:٢٣٨٢)

ولرب نازلة يضيق بها الفتي ذرعًا وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرجُ

قال ابن القيم –رحمه الله-: " انتظار روح الفرج يعني راحته ونسيمه ولذته، فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة، ولاسيما عند قوة الرجاء أو القطع بالفرج، فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته: ما هو من خفي الألطاف وما هو فرج معجَّل". اهـ.

وذكر الماوردي –رحمه الله– الأسباب التي تسهل المصيبة وتخفف الشدة فقال: ومنها أن يتصور انجلاء الشدائد، وانكشاف الهموم، وأنها تتقدر بأوقات لا تنصرم قبلها، ولا تستديم بعدها، فلا تقصر بجزع، ولا تطول بصبر، وإن كل يوم يمر بها فهو يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب، حتى تنجلي وهو عنها غافل.

وقال بعض الشعراء:

عواقب مكروه الأمور خيار وأيام ضر لا تدوم قصار
وليس بباق بؤسها ونعيمها إذا كر ليل ثم كر نهار

١١ - ومما يهون على المبتلى ويرفع عنه الآلام والأحزان: الاستعانة بالصلاة:

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود عن حُذيفة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه [١] أمر صلَّى.

(صحيح أبي داود :١١٩٢)

وروي سعيد بن منصور أن ابن عباس – رضي الله عنهما– نُعِي إليه أخوه قثم – وهو في سفر – فاسترجع ثم تنحى عن الطريق، فأناخ ثم صلى ركعتين فأطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول:

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥)

١٢ - ومما يهون على المبتلى ويخفف عنه ألم المصيبة، التأسي بأهل المصائب:

يقول ابن القيم –رحمه الله– كما في" زاد المعاد: ٤/ ١٩٠" : " ومن علاجه أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة؟! ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة؟! وأنه لو فتش العالم لم يرَ فيهم إلا مبتلى، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن سرور الدنيا أحلام نوم، أو كظلٍّ زائلٍ، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرت يومًا ساءت دهرًا، وإن متعت قليلًا منعت طويلًا، وما ملأت دارًا خيرة إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور.

قال ابن مسعود ﷺ: " لكل فرحة ترحة [٢] ، وما ملئ بيت فرحًا إلا ملئ ترحًا ".

وقال ابن سيرين –رحمه الله–: ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء ".

وذكر ابن الجوزي –رحمه الله– بإسناده عن عبد الله بن زياد: أنه حدثه من قرأ في الكتب أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها، وبلغ أرض بابل مرض مرضًا شديدًا، فلما خاف أن يموت كتب إلى أمه: يا أماه، اصنعي طعامًا، واجمعي من قدرت عليه، ولا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة، واعلمي هل وجدت لشيء قرارًا باقيًا وخيالًا دائمًا؟! إني قد علمت يقينًا أن الذي أذهب إليه خير من مكاني، قال: فلما وصل كتابه صنعت أمه طعامًا، وجمعت الناس، وقالت: لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة، فلم يأكلوا، فعلمت ما أراد، فقالت: من يبلغك عني أنك وعظتني فاتعظت، وعزيتني فتعزيت، فعليك السلام حيًا وميتًا" (تسلية أهل المصاب ص٢٠، ٢١ وسنده فيه مقال)

ولما حضرت الإسكندر الوفاة كتب إلى أمه: أن اصنعي طعامًا يحضره الناس، ثم تقدمي إليهم ألا يأكل منه محزون، ففعلت، فلم يبسط أحد إليه يده، فقالت: ما لكم لا تأكلون؟! فقالوا: إنك تقدمت إلينا ألا يأكل منه محزون، وليس منا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب!! فقالت: مات والله ابني، وما أوصَى إلى بهذا إلا ليعزيني به!! (العقد الفريد: ٣/٢٣٣) (جنة الرضا: ٣/٢٦)

---

١ - قال في النهاية: حزبه: نزل به مٌهم أو أصابه غم.

٢- الترح: ضد الفرح، والترح هو الحزن والهم والهلاك. (النهاية: ١/١٨٦)

فالمصائب في الدنيا إذا عمت هان الخطب وتسلى الناس بعضهم ببعض وكل مصاب بفقد الأحباب لو فتش هذا العالم كله، لم ير إلا مبتلى بفوات محبوب، أو بحصول مكروب، فهذا يسرى عنه. وإذا نظر حوله في كل قرية أو مدينة بل في كل بيت من أصيب مرة ومنهم من أصيب مرارًا، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتي على جميع أهل البيت حتى نفس المصاب سيصاب يومًا بنفسه أسوة بأمثاله ممن تقدمه.

وليعلم كل مصاب أنه مهما نزلت به مصيبة فهناك من الناس من أصيب بأعظم منها وإذا نظر إلى أحوال المكروبين وجد أن مصيبته بينهم ما هي إلا ذرة في فضاء المصائب وقطرة في بحار الكروب فيهون عليه الخطب.

تأس أطال الله عمرك بالألى ... مضوا ولهم ذكر جميل مخلد

فلو لم يكن في الموت خير لمن مضى ... لما مات خير الأنبياء محمدُ

وقال سلام بن أبي مطيع -رحمه الله-: "دخلت على مريض أعوده، فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين في الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم، ولا لهم من يخدمهم. قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك فلم أسمعه يئن قال وجعل يقول: اذكر المطروحين في الطريق، اذكر من لا مأوى له ولا له من يخدمه ".

(الشكر لابن أبي الدنيا ص١٣٥)

وقال الماوردي -رحمه الله-: "ومنها أن يتأسى بذوي الغير، ويتسلى بأولي العبر، ويعلم أنهم الأكثرون عددًا، والأسرعون مددًا، فيستجد من سلوة الأسى، وحسن العزاء ما يخفف شجوه، ويقلل همّه.

(أدب الدنيا والدين ص٤٦٣)

فبرد التأسي لأهل المصائب يطفئ نار المصيبة ويهون الخطب.

قالت الخنساء تنعى أخاها صخرًا وذلك قبل الإسلام:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أُعزِّي النفس عنهم بالتأسي

(ديوان الخنساء: ص٨٤)

فالمصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، وتسلى الناس بعضهم ببعض. وهذا المعنى قد حرمه أهل النار، فلم يسلى بعضهم بعضًا، وهذا زيادة في تعذيبهم وتنكيلهم، إذ هم جميعًا مشتركون في العذاب، وكل واحد منهم يظن أنه أكثر أهل النار عذابًا. **قال تعالى عن أهل النار:** ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (الزخرف: ٣٩)

وانظر إلى حال الأنبياء – وهم قدوتنا– كانوا أكثر الناس ابتلاء ثم الذين دونهم ثم الأمثل فالأمثل، فإذا قرأت في سيرتهم وعرفت أحوالهم هان عليك ما تجد من ألم المصيبة وشدة البلاء.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُوا . .﴾

(البقرة: ٢١٤)

يقول ابن عباس – رضي الله عنهما–:

" أخبر الله تعالى المؤمن أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم فقال: ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء [١] وَالضَّرَّاء [٢] وَزُلْزِلُوا [٣] . .﴾

(الدر المنثور) (وأخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر)

وها هو أيوب عليه السلام الذي قال الله تعالى في شأنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

(الأنبياء:٨٣) فلقد لبث هذا النبي الكريم في المرض ثمانية عشر عامًا، حتى رفضه القريب والبعيد اللهم إلا زوجته واثنين من أبناء عمومته، فصبر واحتسب، فشفاه الله تعالى وأثنى عليه وأعطاه من خير الدنيا.

فقد أخرج ابن حبان بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"إن أيوب نبي الله عليه السلام لبث في بلائه ثماني عشرةَ سنةً، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يَغْدُوانِ إليه ويَرُوحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله، لقد أذنب أيوبُ ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له: صاحبهُ وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرةَ سنةٍ لم يرحمه الله فيكشفُ ما به. فلما راح إليه لم يصبر الرجلُ حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمُرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، وأرجع إلى نيتي فأكفر عنهما كراهية أن يُذكرَ الله إلا في حق قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته امسكَتِ امرأتُه بيده، فلما كان ذات يومٍ أبطأ عليها، فأوحى اللهُ إلى أيوب في مكانه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (ص: ٤٢) **فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاءِ فهو أحسن مما كان، فلما رأتهُ قالت: أي بارك اللهُ فيك، هل رأيت نبي الله المبتلى ؟ والله –على ذلك – ما رأيتُ أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: إني أنا هو، وكان له أَبدَرانِ: أَبدَر القمح وَأَبْدَر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أبدَر القمح أفرغت فيه الذهبَ حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أبْدر الشعيرِ الوَرِق حتى فاضت"**

فانظر لهذا الفضل الكبير الذي نالهُ هذا النبي الكريم لمّا صبر على المرض، بل نال أفضل من ذلك، **أن أثنى الله تعالى عليه فقال:** ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص: ٤٤)

---

١ - البأساء: الفقر.
٢- والضراء: السقم.
٣ - وزلزلوا: بالفتنة وأذى الناس إياهم.

وقال الحافظ: أصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم من طريق نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس:" أن أيوب عليه السلام ابتلى، فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، فكانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما للآخر: لقد أذنب أيوب ذنبًا عظيمًا، وإلا لَكُشِفَ عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب، يعني فحزن، ودعا الله حينئذ، فخرج لحاجته، وأمسكت امرأته بيده، فلما فرغ أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن اركض برجلك وضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها، فرجع صحيحًا، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيوب فقال: إني أنا هو. وكان له أَنْدَرَان: أحدهما للقمح والآخر للشعير، فبعث الله سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض. (فتح الباري:٦/٤٢١)

وهكذا كشف الله تعالى عنه البلاء بعد سنوات طويلة من الصبر، بل وخلَّد الله تعالى ذكره في كتابه الكريم. **فقال تعالى:** ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص: ٤١-٤٤)

فيا له من مدح أن يقول الله العظيم الجليل عن عبدٍ من عباده: (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

وهكذا ينبغي أن تكون أيها المريض عندما يحل بساحتك البلاء أو الأمراض والأسقام أن يقال عنكَ: (نِعْمَ الْعَبْدُ) **ويقال عنك أيضًا:** (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

يقول ابن القيم -رحمه الله- في كتابه الفوائد: يا مخنَّثَ العزم أين أنت، والطريقُ طريقٌ تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورُمي في النار الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضرَّ أيوب، وزاد على المقدار بكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ.

ويقول ابن الجوزي -رحمه الله-: **علاج المصائب بسبعة أشياء: الأول:** أن يعلم بأن الدنيا دار ابتلاء، والكرب لا يرجى منه راحة. **الثاني:** أن يعلم أن المصيبة ثابتة. **الثالث:** أن يقدر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة. **الرابع:** النظر في حال من ابتلي بمثل هذا البلاء، فإن التأسي راحة عظيمة. **الخامس:** النظر في حال من ابتلي أكثر من هذا البلاء فيهون عليه هذا. **السادس:** رجاء الخلف، إن كان من مضى يصح عنه الخلف: كالولد والزوجة. **السابع:** طلب الأجر بالصبر في فضائله، وثواب الصابرين وسرورهم في صبرهم، فإن ترقى إلى مقام الرضى فهو الغاية. اهـ.

١٣- ومما يفرج عن المبتلى: الدعاء لكشف الهموم والغموم:

البلاء نازل بالعبد بقدر من الله – سبحانه وتعالى– كما تقدّم بيانه، وهو القادر على رفعه، فمنه البلاء ومنه العافية –جل وعلا– فعلى المبتلى أن يتوجه بكُليته إلى من بيده رفع البلاء.

فعليك أخي المبتلى بالدعاء والتضرع إلى الله ﷻ في أن يرفع ما نزل بك، وهو سبحانه قريب مجيب، يحب من عباده أن يسألوه، ويثيبهم على سؤالهم بالإجابة وبالثواب العظيم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)، **وقال تعالى:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)

فبين الله تعالى في هذه الآية أن الدعاء عبادة وزلفى له سبحانه، والنبي ﷺ يؤكد على هذا فيقول:

" **الدعاء هو العبادة** ". (رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي:٢٦٨٥)

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣-٨٤)

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: ٦٢)

ولقد ذم الله– تعالى– من لم يتضرع إليه في وقت البلاء، **فقال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون: ٧١)

وجاء في السنة أحاديث كثيرة تدلّ على أن الله تعالى قريب مُجيب، حيي كريم، يجيب دعاء الداعين، وينفِّس كرب المكروبين. ويرفع البلاء عن المبتلين، لكن هناك مقصدًا آخر من الدعاء هو الخضوع والتذلل لله تعالى، فهو عبادة وترك الدعاء من جنس ترك الأعمال الصالحة اتكالًا على ما قُدِّرَ، فيلزم ترك العمل جُملة.

واعلم أخي المبتلى أن رد البلاء بالدعاء كرد السهم بالترس[1]، وليس من شرط الإيمان بالقدر أن لا يترَس من رُمِيَ السهم

واعلم أخي المبتلى أن الدعاء سبب لدفع البلاء قبل نزوله، ورفعه بعد نزوله.

فقد أخرج الترمذي والحاكم عن ابن عمر – رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ:

" **الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم – عباد الله – بالدعاء** ".

(حسنه الألباني في صحيح الجامع:٣٤٠٩، وصحيح الترمذي: ٢٨١٣)

١- التُرس: ما يُتوقى به في الحرب (المعجم الوسيط: ٨٣/١)

أخرج الترمذي والحاكم عن سلمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لا يرد القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمرِ إلا البرُّ ".** (حسنه الألباني في صحيح الجامع: ٧٦٨٧)

وأخرج أحمد وابن ماجه والحاكم عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يردّ القدر إلا الدعاء، وإن الرجل لَيُحرم الرزق بالذنب يصيبه ".**

قال الغزالي -رحمه الله- كما في" إحياء علوم الدين: ١/٣٢٨":

فإن قلت: ما فائدة الدعاء، والقضاء لا مردّ له؟ فاعلم أن من القضاء ردّ البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن التُرس سبب لردّ السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء.

وقال ابن تيمية -رحمه الله-: الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، ولهذا أُمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة والعتق... والله أعلم (الفتاوى: ١٩٣/٨)

ومما يدل على أن الدعاء يرفع الوباء والبلاء *ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال النبي ﷺ:* **" اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وانقل حُمَّاها إلى الجحفة، اللهم بارك لنا في مُدِّنا وصاعنا [1] ".**

قال الخطابي وغيره: كان ساكنو الجحفة في ذلك الوقت يهودًا.

وقال ابن القيم -رحمه الله- كما في كتابه الجواب الكافي ص ١٧: والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن وله مع البلاء ثلاث مقامات: **أحدها:** أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه. **الثاني:** أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يُخفّفه وإن كان ضعيفًا. **الثالث:** أنهما يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وأخرج الحاكم بسند حسن عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: **" لا يُغني حذرٌ من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزلُ فيتلقاهُ الدعاء فيعتلجان[2] إلى يوم القيامة ".**

(صحيح الجامع: ٧٧٣٩)

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **" يُستَجَابُ لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: دعوتُ ربي فلم يستَجِبْ لي ".**

---

[1] ـ الصاع: أربعة أمداد.

[2] ـ يعتلجان: يتصادمان ويتدافعان.

- ***وفي رواية عند مسلم:*** **" لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل"، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فَيَسْتَحْسِر عند ذلك ويَدَع الدعاء ".**

- **قوله:** **" يقول دعوت فلم يستجب لي "** **قال ابن بطال - رحمه الله -:** المعنى أنه يسأم فيترك الدعاء، فيكون كالمانّ بدعائه. (فتح الباري: ١١/١٤٠)

وقال ابن حجر –رحمه الله– كما في فتح الباري: " معنى "**يستحسر**": ينقطع

وفي الحديث أدب من آداب العلماء، وهو أن يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة، لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار.

وقال ابن القيم –رحمه الله– كما في الجواب الكافي ص ١٩:

ومن الآفات التي تمنع ترتّب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فَيَسْتَحْسِر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذرًا أو غرس غرسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله. فالمؤمن الحق ربما يبالغ في الدعاء ويُكثر منه، لكن لا يرى له أثرًا، ومع هذا لا يتغير أمله ورجاؤه ويلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة، والمطلوب هو الصبر والتسليم في جميع الأحوال، فربما لم يستجب الله له لينظر كيف صبره، أو أنه يريد منه أن يكثر التضرع واللجوء إليه ومناجاته، فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل، فذاك ضعيف الإيمان، يرى أن له حقًا على ربه، وربما يترك الدعاء إذا تأخرت الإجابة فيكون كالمنان على ربه.

فها هو يعقوب عليه السلام: بقى سنين في البلاء ورجاؤه لا يتغير، فقد يوسف وبعد سنين يفقد بنيامين ومع ذلك لم يتغير أمله ورجاؤه في الله، **فقال:** ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: ٨٣)

فلا تيأس أيها المبتلى من روح الله وإن طال البلاء، وعليك بملازمة الصبر وكثرة الدعاء. والله اسأل أن يزيل همك ويكشف كربك، آمين ..... يا أرحم الراحمين.

وأخرج الترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ***أن رسول الله*** ﷺ ***قال:*** **" ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إيّاه، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: إذن نكثر!! قال: الله أكثر ". يعني أكثر إجابة.**

وأخرج الإمام أحمد والحاكم عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **ما من مسلم يدعو بدعوة، ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث: إما أن تُعجّل له دعوته، وإما أن يدّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا: إذن نكثر !! قال: الله أكثر** ".

قال ابن حجر -رحمه الله- كما في فتح الباري: ٩٥/١١ " : كل داع يستجاب له، لكن تتنوع الإجابة، فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعوضه " ثم ذكر هذين الحديثين.

وقال ابن الجوزي -رحمه الله-: اعلم أن دعاء المؤمن لا يردّ، غير أنه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة، أو يعوّض بما هو أولى له عاجلًا أو آجلًا. (فتح الباري: ١٤١/١١)

وكان عمر ﷺ يقول: " **إني لا أحمل همّ الإجابة، ولكن أحمل همّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه** ". (فتاوى ابن تيمية: ١٩٣/٨)

قال ابن القيم -رحمه الله-: وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه فقال:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه　　　من جود كفيك ما عوّدتني الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة. اهـ. (الجواب الكافي ص ٢٧)

وأخرج أبو داود والترمذي عن سلمان الفارسي ﷺ عن النبي ﷺ قال:" **إن ربَّكم حييٌّ كريم، يستحيي أن يبسطَ العبدُ يديه إليه أن يردّهما صِفْرًا**[1] ". (صحيح الجامع: ٢٠٧٠)

- *وفي رواية:*" **إن ربّكم حييّ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردّهما صِفْرًا خائبتين** ".

فعليك أخي الكريم بالإكثار من الدعاء والإلحاح على الله في ذلك، وكن على يقين بالإجابة، فإنّ هذا أحرى للقبول، *كما قال* ﷺ:" **ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ** ". (رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ٢٤٥)

وعليك بالمداومة على الدعاء مهما تأخرت الإجابة، فليس للعبد ملجأ ولا مفرّ إلا إلى مولاه ﷻ.

قال السري السقطي -رحمه الله-: كن مثل الصبي إذا اشتهى على أبويه شهوة فلم يمكناه قعد يبكي لهما، فكن أنت مثله، فإذا سألت ربّك ولم يعطك فاقعد فابك له. (شعب الإيمان للبيهقي: ٢٤٦/٣)

وقال أبو الدرداء ﷺ: **من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له.** (شعب الإيمان)

وقال الثعالبي المفسِّر:

وإني لأدعو الله والأمر ضيّق　　　عليّ فما ينفــكّ أن يتفرّجــا

وربّ فتى سُدّت عليه وجوهه　　　أصاب له في دعوة الله مخرجا

(طبقات السبكي: ٥٨/٩)

١ - الصِفر: الفارغ

وقال ابن القيم –رحمه الله– كما في" الجواب الكافي ص ١٩، ٢٠" مبينًا آداب الدعاء:

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستّة، وهي: **الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر.**

وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب وذلًا له وتضرعًا ورقّة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألحّ عليه في المسألة، وتملّقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة. فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا، ولاسيما إذا صادف الأدعية التي أخبر النبي أنها مظنّة الإجابة، أو أنها متضمّنة للاسم الأعظم.

فهذه جملة من آداب الدعاء ذكرها ابن القيم والتي بها لا يرد الدعاء إن شاء الله فاحرص على تحقيقها

وهناك جملة من الأدعية جعلها الله سببا في كشف الهموم والغموم نذكرها لأهميتها ولإتمام الفائدة:

يا أيها المكروب خاصة، يا أيها الناس عامة، ادعوا ربكم تضرعًا وخفية، ففيه المطمع وإليه المفزع،

لا إله إلا هو من لكم غيره يجبر كسركم؟ من لكم غيره يبدد أحزانكم؟ من لكم غيره يؤنسكم في وحشتكم؟

من لكم إذا دفعتم عن الأبواب إلا بابه؟ من لكم غيره أعز مطلوب وأشرف مرغوب؟

فيا من دخلت عليه الهموم والغموم والأحزان عليه من كل باب، وأتته من كل طريق، ارفعوا أكف الضراعة، وعليكم بهذه الأدعية والتي يكشف الله به الهموم ويزيل بها الغموم والأحزان، ومنها:

١- ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس– رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: **" لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات وربّ الأرض، رب العرش الكريم ".** ***– وفي رواية عند مسلم:*** **" كان إذا أحزبه أمر قال ذلك ".**

قال النووي –رحمه الله– كما في الأذكار ص١٦٤ قوله: **" حزبه أمر "** أي: نزل به أمر مهم، أو أصابه غم.

وقال في موضع آخر تعليقًا على هذا الحديث: هو حديث جليل ينبغي الاعتناء به والإكثار منه عند الكرب والأمور العظيمة. قال الطبري: كان السلف يدعون به، ويسمونه دعاء الكرب.

(شرح صحيح مسلم :١٧/٥٠)

٢- وأخرج الترمذي عن أنس ﷺ قال: **" كان النبي ﷺ إذا كَرَبه أمرٌ قال: يا حيُّ يا قيُّومُ برحمتك أستغيث ".** (صحيح الجامع: ٤٧٧٧) (صحيح سنن الترمذي: ٢٧٩٦)

وفي مستدرك الحاكم عن ابن مسعودﷺ بلفظ:" كان إذا نزل به همٌّ أو غمٌّ قال: يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث ".

٣- وأخرج الإمام أحمد والنسائي في عمل اليوم والليلة عن عبد الله بن جعفر عن عليّ - رضي الله عنهما- قال:" لقنني رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات، وأمرني إن نزل بي كِرْب أو شدّة أن أقولها: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحانه تبارك الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين ".

وكان عبد الله بن جعفر يلقّنها، وينفث بها على الموعوك (أي المحموم) ويعلِّمها المغتربة من بناته (أي التي تزوّج إلى غير أقاربها) (عمل اليوم والليلة للنسائي ص ٤٠٦) (الأذكار ص١٦٥)

٤- وأخرج أبو داود وابن ماجه عن أسماء بنت عُميس -رضي الله عنها- قالت: قال لي رسول الله ﷺ:" ألا أعلمكَ كلماتٍ تقولهنَّ عند الكَرْب؟ اللهُ اللهُ ربِّي، لا أشرك به شيئًا ". (صحيح الجامع: ٢٦٢٣)

- وفي رواية:" من أصابه همٌّ، أو غمٌّ، أو سُقمٌ، أو شدَّةٌ، فقال: اللهُ ربي، لا شريك له، كشف ذلك عنه ". (هذا اللفظ للطبراني في الكبير وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ٦٠٤٠)

٥- وأخرج أبو داود وأحمد عن أبي بكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت ".

(صحيح الجامع: ٣٣٨٨)

٦- وأخرج ابن أبي الدنيا في كتابه "الفرج" عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: " كلمات الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم ". (الصحيحة:٢٠٤٥) (صحيح الجامع:٤٥٧١)

٧- وأخرج البخاري ومسلم عن أنس ﷺ قال:" كنت أخدم رسول الله ﷺ، فكنت أسمعه كثيرًا يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَع الدَّين وغلبة الرجال ".

٨- وأخرج البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال:" حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

٩- وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أَمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاءَ حزني، وذهاب همّي، إلا أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجًا - وفي رواية: " فرحًا - قال، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلّمها ؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها ". (السلسلة الصحيحة: ١٩٩)

قال ابن القيم -رحمه الله- كما في شفاء العليل ما ملخصه:

استوعب هذا الحديث الصحيح أقسام المكروه الواردة على القلب، فالهم يكون على مكروه يتوقع في المستقبل يهتم به القلب، والحزن على مكروه ماض من فوات محبوب، أو حصول مكروه، إذا تذكره أحدث له حزنًا، والغم يكون على مكروه حاصل في الحال يوجب لصاحبه الغم، فهذه المكروهات هي من أعظم أمراض القلب وأدوائه، وقد تنوع الناس فذي طرق أدويتها والخلاص منها، وتباينت طرقهم في ذلك تباينًا لا يحصيه إلا الله بل كل أحد يسعى في الخلاص منها بما يظن أو يتوهم أنه يخلصه منها، وأكثر الطرق والأدوية التي يستعملها الناس في الخلاص منها لا يزيدها إلا شدة كمن يتداوى منها بالمعاصي على اختلافها من أكبر كبائرها إلى أصغرها وكمن يتداوى منها باللهو واللعب والغناء، وكلهم قد أخطأ الطريق إلا من سعى في إزالتها بالدواء الذي وصفه الله لإزالتها، وهو دواء مركب من مجموع أمور متى نقص منها جزء نقص من الشفاء بقدره، وأعظم أجزاء هذا الدواء التوحيد والاستغفار، **قال الله تعالى:** ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ (محمد : ١٩) فالتوحيد يدخل العبد على الله، والاستغفار والتوبة يرفع المانع ويزيل الحجاب الذي يحجب القلب عن الوصول إليه فإذا وصل القلب إليه زال همه وغمه وحزنه وإذا انقطع عنه حضرته الهموم والغموم والأحزان وأتته من كل طريق. ودخلت عليه من كل باب، فلذلك صدر هذا الدعاء المذهب للهم والغم والحزن بالاعتراف له بالعبودية حقًا منه ومن آياته ثم اتبع ذلك باعترافه بأنه في قبضته وملكه وتحت تصرفه يكون ناصيته في يده يصرفه كيف يشاء كما يقاد من أمسك بيده شديد القوى، لا يستطيع إلا الانقياد له ثم أتبع ذلك بإقرار له بنفاذ حكمه فيه وجريانه عليه شاء أم أبى وإذا حكم فيه بحكم لم يستطع غيره برده أبدًا، وهذا اعتراف لربه بكمال القدرة عليه واعتراف من نفسه بغاية العجز والضعف، ثم أتبع ذلك باعترافه بأن كل حكم وكل قضية ينفذها فيه هذا الحاكم فهي عدل محض منه لا جور فيها ولا ظلم بوجه من الوجوه فقال: " ماض في حكمك، وعدل في قضاؤك " ومن لم يثلج صدره بهذا ويكون له كالعلم الضروري لم يعرف ربه وكماله، ونفسه وعيبه ولا عدل في حكمه بل هو ظلوم جهول فنفوذ حكمه في عباده بملكه، وعدله فيهم بحمده وهو سبحانه له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ونظير هذا قوله

سبحانه حكاية عن نبيه هود عليه السلام أنه قال: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود: ٥٦)

أيها المبتلى .....إذا كثرت الأحزان والهموم وغلب على عقلك ولم تذكر شيئًا من هذه الأدعية، فلا تنسى أن تدعو بدعوة ذي النون **يونس** عليه السلام ﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، حتى يكشف الله همك وغمك، ويفرج كربك.

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **" دعوة ذي النّون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قطّ إلا استجاب الله له ".** (صحيح الجامع: ٣٣٨٣) (صحيح الترمذي:٣٠٥٢)

و**(النون)** يعني: الحوت. و**(ذو النون)** يونس بن مَتَّى عليه السلام. (تفسير ابن كثير:٥/ ٣٦٠)

وقد قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٧، ٨٨)

قال القرطبي –رحمه الله– في تفسير هذه الآية: وفي الخبر في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنجاه، **وهو قوله:** ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٨). اهـ.

(الجامع لأحكام القرآن:١١/٣٣٤)

وقال ابن كثير –رحمه الله–: ﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولاسيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الأنبياء.

(تفسير ابن كثير: ٥/٣٣٦)

تنبيهات وفوائد متعلقة بالدعاء:

١ – **حديث:** " الدعاء سلاح المؤمن " ورد في حديث ضعيف رواه أبو يعلى، وهو قول مأثور عن الفضيل بن عياض

٢ – **يا أيها المُبتلى:** إذا أردت أن يستجيب الله لك في الشدة، فعليك أن تكثر من الدعاء في الرخاء.

فقد أخرج الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" من سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء ".**

٣– يا أيها المُبتلى: إذا أردت أن يفرج الله همك ويكشف كربك فعليك الدعاء باسم الله الأعظم.

فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أسماء بنت يزيد . رضي الله عنها . قالت: قال رسول الله **ﷺ:" اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة (آل عمران) ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ".** (صحيح الجامع:٩٨٠)

وأخرج أبو داود والترمذي عن بريدة ﷺ **أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو، وهو يقول: "اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى ".** (صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود)

وأخرج أبو داود والنسائي عن أنس ﷺ قال: **" كنت مع رسول الله ﷺ جالسًا، ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهد دعا فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنّان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيّوم، إني أسألك "، فقال النبي ﷺ: " والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى".**

(صححه الألباني في صحيح أبي داود)

٤– إذا رأيت مبتلى فلا تنس أن تقول هذا الدعاء الذي علمك إياه النبي ﷺ فقال:

" من رأي مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافني مما ابتلاه به وفضَّلني على كثير ممن خلق تفضيلًا، لم يصبه ذلك البلاء ". (رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ)

وفي رواية أخرى: **" من رأى صاحب بلاء فقال: الحمد لله الذي عافني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا لم يصبه ذلك البلاء ".** (صحيح الجامع: ٦٢٤٨)

فَضْلُ وَفَوَائِدُ وحِكَمُ الْابتلاء

أيها المبتلى ... اعلم أن الابتلاء فيه خيرٌ وفوائد عظيمة منها: -

١ - الابتلاء علامة على محبة الله لك:

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي عن محمود بن لُبَيْد ﷺ أن النبي ﷺ قال: " إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط ".

وأخرج الترمذي وابن ماجه بسند صحيح عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط ".

(صححه الألباني في صحيح الترمذي ٢/٢٨٦)

وانظر أيها المبتلى... إلى قوله: " وإن الله إذا أحب " فليس الشأن أن تحب اللهَ، إنما الشأن أن يحبك اللهُ، وأهل البلاء هم أهل محبته، وفي الحديث: " والله، لا يُلقي الله حبيبهُ في النار ".

(رواه الحاكم في المستدرك من حديث أنس ﷺ وهو في صحيح الجامع: ٧٠٩٥).

قال المباركفوري -رحمه الله-: " إن عظم الجزاء": أي كثرته، " مع عظم البلاء" فمن ابتلاه الله فجزاؤه أعظم، " ابتلاهم" أي اختبرهم بالمحن والرزايا، " فمن رضي" بما ابتلاه به " فله الرضا" منه تعالى وجزيل الثواب، " ومن سخط " أي: كره بلاء الله وفزع ولم يرض بقضائه " فله السخط" منه تعالى وأليم العذاب. (تحفة الأحوذي: ٧/٧٧)

وقال ابن القيم -رحمه الله-: " من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته . من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه. فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه، كيف؟! وهو الجواد الماجد، الذي له الجواد كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها. ومن رحمته . سبحانه . بعباده أن نغص عليهم الدنيا وكدرها، لئلا يسكنوا إليها ولا يطمئنوا إليها ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم ". (إغاثة اللهفان: ٢/١٧٤)

وقال أيضًا: " الرب ينعم على عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلًا، إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه" (عدة الصابرين ص ٧١)

وقال بعض أهل العلم: " لنعم الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها، وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا، فأن أكون فيما رضي الله لنبيه وأحب له أحب إلي أن أكون فيما كره له وسخطه ". (عدة الصابرين: ص ١٥٧)

واعلم أخي الحبيب أنه كلما ازدادت محبة الله للعبد ازداد البلاء حتى يُزاد في الجزاء والأجر، ولذلك تجد أن أشد الناس ابتلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل؛ لأنهم أحب الخلق إلى الله تعالى.

فقد جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن مصعب عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: **" قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلي على قَدْر [حسب] دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة ".**

(صحيح الترغيب والترهيب:٣٤٠٢) (صحيح الجامع: ٩٩٢)

ودليل هذا أنك تجد النبي ﷺ وهو أحب الخلق إلي الحق – سبحانه وتعالى– ومع ذلك يشتد عليه الوجع في مرضه.

تقول عائشة – رضي الله عنها – كما عند البخاري ومسلم: **" ما رأيت أحدًا أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ ".**

أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود ﷺ قال: **دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك[1]، فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا !! فقال رسول الله ﷺ:" أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم"، قال: فقلت: ذلك إن لك أجرين، فقال رسول الله ﷺ:" أجل" ثم قال رسول الله ﷺ: " وما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ الله به سيئاته كما تحط[2] الشجرة ورقها ".**

وأخرج الحاكم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: **دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه، فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك !! قال: "إنا كذلك، يضعّف لنا البلاء، ويضعف لنا الأجر " قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء ؟ قال: " الأنبياء " قلت: ثم من ؟ قال: " ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يُحَوِّيها[3]، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء "** (الألباني في الصحيحة:١٤٤) (صحيح ابن ماجه: ٣٢٥٠)

أخرج الإمام أحمد والنسائي والحاكم عن فاطمة بنت اليمان – رضي الله عنها – قالت: **أتينا رسول الله ﷺ نعوده في نساء، فإذا بسقاء[4] معلق نحوه يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حر الحمى، قلنا: يا رسول الله، لو دعوت الله فشفاك، فقال رسول الله ﷺ:" إن من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ".** (الصحيحة: ١٤٥)

١- الوعك: هو الحُمَّى، وقيل ألم الحمى.
٢ - تحط: تلقيه منثرًا. (شرح مسلم للنووي: ٣٦٣/١٦).
٣ - يُحَوِّيها: يجمعها (لسان العرب: ٢٠٨/١٤)
٤ - السقاء: ظرف الماء من الجلد، ويجمع على أسقية . (النهاية: ٣٠١/٢)

وأخرج أبو يعلى في مسنده بسند صحيح عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: **كان عِرْقُ الكُلْيَة – وهي الخاصرة – تأخذ رسول الله ﷺ شهرًا، ما يستطيع أن يخرج إلى الناس، ولقد رأيته يُكْرَبُ حتى آخذ بيده فأتفل فيها بالقرآن، ثم أكبها على وجهه ألتمس بذلك بركة القرآن وبركة يده، فأقول: يا رسول الله إنك مجاب الدعوة فادع الله يفرج عنك ما أنت فيه، فيقول: يا عائشة أنا أشد الناس بلاء".**

(صحيح مسند أبي يعلى: ٤٧٦٩)

والسر في أن أشد الناس ابتلاءً الأنبياء فالأمثل فالأمثل؛ أن البلاء في مقابلة النعمة، فمن كانت نعمة الله عليه أكثر كان بلاؤه أشد، ومن ثم ضوعف حد الحر على العبد، وقيل لأمهات المؤمنين:

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (الأحزاب:٣٠)

ولا ننسى ما قصَّه النبي ﷺ عن ابتلاء الله تعالى لأيوب عليه السلام بالمرض الذي مكث فيه أيوب ثمانية عشر عامًا، والأنبياء في بلائهم متفاوتون ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ (آل عمران:١٦٣)

والصالحون كذلك في مصابهم متباينون فهم ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ (آل عمران:١١٣)

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: **" إن الصالحين يُشدَّد عليهم ".** (صحيح الجامع: ١٦٦٠)

وها هو عثمان بن أبي العاص الثقفي كان قبل إسلامه لا يصاب بالمرض أو البلاء، ولكنه عندما أسلم نزل به البلاء والمرض وهذا تأكيد لما قرره النبي ﷺ.

فقد أخرج الإمام مسلم عن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه: **أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ:" ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثًا وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر".**

فانظر معي كيف أن البلاء والمرض بدأ منذ أسلم.

وصدق النبي ﷺ حيث قال: **" وأن الله- تعالى – إذا أحب قوما ابتلاهم ".**

ولهذا كان الحسن البصري -رحمه الله- يقول: **كان الرجل منهم أو من المسلمين إذا مر به عام لم يُصَب في نفسه ولا ماله قال: ما لنا أتَوَدَّعَ الله منا؟**

يعنى أنهم كانوا يعلمون أن الابتلاء محبة من الله لعبده، فحين يتأخر البلاء يعدون هذه عقوبة، وعدم إرادة الخير بهم.

فمن أراد الله به خيرًا ابتلاه في جسده أو ماله أو ولده أو في أهله؛ حتى يطهره من الذنوب فيوافيه يوم القيامة ولا ذنب له، وهذا هو عين الخير.

فقد أخرج الترمذي من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ".**

(قال الألباني حسن صحيح).

قال الطيبي –رحمه الله– كما في" شرح المشكاة: ٣/ ٣١٠ ":

قوله: "**أمسك عنه بذنبه**" أي: أمسكه عنه لما يستحقه بسبب ذنبه من العقوبة، والمعنى: لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها، فيستوفى حقه من العقاب. اهـ.

ومن لم يبتلَ في هذه الحياة الدنيا فهو على خطر كبير.

فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء، والفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء ".**

وعند البخاري أيضًا من حديث عبد الله بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال: **" مثل المؤمن كالخامة من الزَّرع تُفيؤُها[١] الريحُ مرَّة، وتعدلها مرَّة، ومثل المنافق كالأرْزة لا تزال حتى يكون انجعافُها[٢] مرة واحدة ".**

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **" مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، مثل المنافق كمثل شجرة الأرْز[٣]، لا تهتز حتى تستحصد[٤]، وفي لفظ:" مثل المؤمن كمثل خامة[٥] الزرع، يفيء[٦] ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها[٧]، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء، ومثل الكافر كمثل الأرْزة صماء[٨]، معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء ".**

قال المهلب –رحمه الله– : "معني الحديث أن المؤمن حيث جاءه أمر الله انصاع له وأطاع، فإن وقع له خير فرح به وشكر، وإن وقع له مكروه صبر ورجا الخير، فإذا اندفع عنه اعتدل شاكرًا، والكافر لا يتفقده الله باختياره، بل يحصل له التيسير في الدنيا، ليتعسر عليه الحال في المعاد، حتى إذا أراد الله إهلاكه قصمه، فيكون موته أشد عذابًا عليه وأكثر ألمًا في خروج نفسه". اهـ. (فتح الباري:١٠/١٠٧).

---

١ - تفيؤها: تميلها أو ترقدها.
٢ - انجعافها: أي انقلاعها أو انكسارها من وسطها أو أسفلها.
٣- الأرْز: بفتح الهمزة وإسكان الراء وبعدها زاي، وهو شجر معروف يشبه شجر الصنوبر، وهو شجر معتدل صلب لا يحركه هبوب الريح. وقيل: هو شجر الصنوبر (انظر: النهاية :١/٣٨)، (شرح صحيح مسلم للنووي :١٧/١٥٧)، (الفتح: ١٠/١٠٧).
٤- تستحصد: بفتح أوله وكسر الصاد على الأشهر، أي: لا تتغير حتى تنقلع مرة واحدة كالزرع الذي انتهى يبسه. (شرح صحيح مسلم ـ الموضع السابق).
٥- الخامة: القصبة اللينة من الزرع (شرح النووي على مسلم). وقال الخليل: الخامة: الزرع أول ما ينبت على ساق واحد.
٦- يفيء: أي يتحرك ويميل. (انظر النهاية:٣/٤٨٣).
٧- تكفئها أي: تميلها (انظر ترتيب القاموس:٤/٦٢).
٨- أي: صلبة شديدة بلا تجويف. (فتح الباري:١٠/١٠٨).

وقيل: المعني أن المؤمن يتلقى الأعراض الواقعة عليه لضعف حظه في الدنيا، فهو كأوائل الزرع شديد الميلان لضعف ساقه والكافر بخلاف ذلك، ***فالنبي ﷺ قال كما في صحيح مسلم:*** " **وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها** ". فهؤلاء جازاهم الله أجور أعمالهم، فأعطاهم في الدنيا من الصحة والأمن والرزق والأولاد، ولم ينقصهم شيئًا من أجورهم لكن في الآخرة ليس لهم إلا النار.

وقال النووي –رحمه الله–: **قال العلماء:**" معني الحديث أن المؤمن كثير الآلام في بدنه أو أهله أو ماله، وذلك مكفر لسيئاته، ورافع لدرجاته. وأما الكافر فقليلها، وإن وقع به شيء لم يكفر شيئًا من سيئاته، بل يأتي بها يوم القيامة كاملة" (شرح صحيح مسلم: ١٥٨/١٧)

كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٥،١٦)

ولذلك رد النبي ﷺ امرأة ولم يتزوجها لأنها لم تمرض ولم تبتل.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أنس رضي الله عنه: " **أن امرأةً أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله: ابنةٌ لي كذا وكذا، فذكرت من حسنها وجمالها فآثرتك بها، فقال: قد قبلتها فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تُصْدَعْ، ولم تشتكِ شيئًا قط، فقال: لا حاجة لي في ابنتك** ".

ولعل النبي رد هذه المرأة ***لأنه ﷺ هو القائل:*** " **إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم** ".

فالابتلاء علامة على محبة الله للعبد، ومن لا يُبتلى فهو في الغالب على خطر، أو لعل النبي ﷺ لما علم أنها لم تمرض ولم تشتكِ أدرك أن في دينها رقةً وأنها ليست كفئًا، ***وهو القائل ﷺ كما عند أحمد والترمذي والنسائي:*** " **يبتلى المرء على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقة ابتلى على قدر دينه** ".

جاء في كتاب الزهد لهناد ص ٢٤٧ وعند أحمد في كتاب الزهد ص ١٦٣:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنكم ترون الكافر من أصحّ الناس جسمًا، وأمرضهم قلبًا، وتلقون المؤمن من أصحّ الناس قلبًا، وأمرضهم جسمًا، وايم الله لو مرضت قلوبكم، وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان .

وعن قيس بن أبي حازم –رحمه الله– قال: **طَلَّقَ خالد بن الوليد رضي الله عنه امرأته ثم أحسن عليها الثناء، فقيل له: يا أبا سليمان لأي شيء طلقتها ؟ قال: ما طلقتها لأمرٍ رابني منها ولا ساءني، ولكن لم يُصبْها عندي بلاء** ".

عن هلال بن يَسَاف –رحمه الله– قال: " كنا قعودًا عند عمار بن يسار ﷺ فذكروا الأوجاع، فقال أعرابيّ: ما اشتكيت قط، فقال عمار: ما أنت منا – أو لست منا – إن المسلم ليبتلى ببلاء فَتُحَطُّ عنه ذنوبه كما يُحَط الورق من الشجر وإن الكافر– أو قال: الفاجر– يبتلى ببلاء فمثله مثل بعير أُطلق فلم يدر لِمَ أطلق، وعُقِلَ فلم يدر لِمَ عُقل".

فالمؤمن يعرف لماذا مرض؟ وإذا عرف وشُفي يعلم من أين أُتِيَ، أما الفاجر فلا يدري لماذا قُيد وربط ومُنع، وأيضًا لا يعلم لماذا أُطلق وترك وعُوفي.

وأخرج الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد بسند حسن عن أبي هريرة ﷺ قال: **دخل أعرابيٌ على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: أخذتْك أمُّ مِلْدَم[1] قط ؟ قال: وما أمُّ مِلْدَم ؟ قال: حرّ يكون بين الجلد واللحم، قال: ما وجدتُ هذا قط، قال: فهل أخذك هذا الصداع ؟ قال: وما هذا الصداع؟ قال: عرق يضرب على الإنسان في رأسه، قال: ما وجدت هذا قط، فلما ولّى، قال النبي ﷺ: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا ".**

(صحيح الأدب المفرد) (وقال أحمد شاكر –رحمه الله– في تعليقه على المسند: إسناده صحيح).

وليس معنى هذا الحديث أن كل من عافاه الله من الأمراض يكون من أهل النار ولابد، ولكن النبي ﷺ أراد إعلام أمته أن المرء لا يكاد يتعرى عن الذنوب والمعاصي، وأن النار تجب له بذلك إن لم يتفضل الله ﷻ عليه بالعفو والمغفرة، وقد جعل الله الأمراض والمصائب وسائر أصناف البلاء سببًا للعفو والمغفرة.

قال ابن حبان –رحمه الله– كما في" صحيحه: ٧/١٧٩ " في شرح قوله ﷺ: **" من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا ".**

لفظة إخبار عن شيء مرادها الزجر عن الركون إلى ذلك الشيء وقلّة الصبر على ضدّه، وذلك أن الله –جل وعلا – جعل العلل في هذه الدنيا والغموم والأحزانَ سبب تكفير الخطايا عن المسلمين، فأراد ﷺ إعلام أمته أن المرء لا يكاد يتعرى عن مقارفة ما نهى الله عنه في أيامه ولياليه، وإيجاب النار له بذلك إن لم يتفضل عليه بالعفو، فكأن كل إنسان مرتهن بما كسبت يداه، والعلل تكفر بعضها عنه في هذه الدنيا، لا أنّ من عوفي في هذه الدنيا يكون من أهل النار". اهـ.

وصدق النبي ﷺ حيث قال كما في الحديث السابق: **" إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ".**

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣)

---

١ - أم ملدم: الحمَّى.

أخرج الإمام أحمد وابن حبان عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: **أن رجلًا تلا هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣)، فقال: إنا لنجزي بكل ما عملناه؟ هلكنا إذًا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: نعم. يجزي به في الدنيا من مصيبة في جسده مما يؤذيه ".**

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: **لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣) بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال النبي ﷺ: قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارةٌ، حتى النكبة يُنْكَبُها والشوكة يشوكُهَا ".**

قال النووي –رحمه الله– كما في" شرح مسلم: ١٦/٣٦٧ ":

قوله: "**قاربوا**" أي: اقتصدوا فلا تغلوا ولا تقصروا بل توسطوا، "**وسددوا**" أي: اقصدوا السداد، "**والنكبة**" هي مثل العثرة يعثرها برجله، وربما جرحت أصبعه، **وأصل النكب:** الكبّ والقلب.

وأخرج الإمام أحمد وابن حبان بسند فيه مقال عن أبي بكر ﷺ قال: **يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ؟ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣) فقال النبي ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرضُ؟ [ألست تحزن؟] ألست تصيبك اللأواء[1]؟ قال: قلت: بلى، قال: هو ما تجزون به ".**

وصدق بعض السلف حيث قال: لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس.

واعلم أيها المبتلى...

أن أي بلاءٍ مهما كان بالنسبة للنار فهو عافية، وأن أي نعيم بالنسبة للجنة فهو سراب، فأيهما أفضل لك؟ أن يبتليك الله بالمصائب ليطهرك من المعايب؟ أم يعافيك في الدنيا من الأمراض والأسقام وليس لك في الآخرة إلا لفح النار؟ ونحن ضعفاء لا نقوى على لفحة أو غمسة أو صبغة في جهنم فمعها ننسى كل نعيم.

فقد أخرج الإمام مسلم عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" يؤتى بأنعم أهل الأرض من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط ؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله لا يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله ما مَرَّ بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط ".**

---

١ ـ اللأواء: شدة الضيق.

فيا له من حديث ينزل على هذه القلوب المحترقة بلفح البلاء فيهدئ من روعها ويخفف من آلامها، وترضى بهذا البلاء والذي يغسلها ويطهرها من الذنوب والزلات ويكتب لها الحسنات ويرفع لها الدرجات.

فهذا البلاء دواء وشفاء، سقاه العليم الحكيم لمن أراد به الخير

فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" من يرد الله به خيرًا يصِب منه ".**

- **يُصب منه:** ضبطه بعض الحفاظ بكسر الصاد وبعضهم بفتحها.

قال الحافظ -رحمه الله- في" الفتح: ١٠/١١٣ ": كذا للأكثر بكسر الصاد والفاعل الله. قال أبو عبيد الهروي: معناه يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها. اهـ.

وقال ابن الجوزي -رحمه الله-: أكثر المحدثين يرويه بكسر الصاد، وسمعت ابن الخشاب يقول: بفتح الصاد وهو أحسن وأليق كذا قال، ولو عكس لكان أولى. والله أعلم. اهـ.

وقال البيضاوي -رحمه الله- في شرح هذا الحديث: أي: يُوصل إليه المصائب ليطهره من الذنوب ويرفع درجته، وهي اسمٌ لكل مكروه؛ وذلك لأن الابتلاء بالمصائب طبٌ إلهي يداوي به الإنسان من أمراض الذنوب المهلكة. اهـ. (كذا في حاشية عبد الباقي على الموطأ: ٢/٩٤١)

فهذا الابتلاء الذي يبتلي الله به العبد فيه ما فيه من الحِكَم الخفية، وخير كثير من رب البرية.

فلابد أن نعلم أن الله – سبحانه وتعالى- لا يقضي شيئًا كونًا ولا شرعًا إلا وفيه الخير والرحمة لعباده، وفيه الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكه عقول البشر.

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: **" عجبًا لأمر المؤمن لا يقضي الله له شيئًا إلا كان خيرًا له ".**

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كما في كتابه" الحسنة والسيئة ص ٣٢٧": " وما يصيب الإنسان إن كان يسرُّه فهو نعمة بينة، وإن كان يسوؤه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه ويثاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها. اهـ.

وقد قال تعالى في حديث الإفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (النور:١١)

قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- كما في كتابه الفوائد ص٢٠٠:

في هذه الآية عدة حِكَم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المسرَّة من جانب المضرَّة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، ***ومن أسرار هذه الآية:*** أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه

من حُسن العاقبة. ***ومنها:*** أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعلَّ مضرَّته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حُسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك. ***ومنها:*** أنه إذا فوّض أمره إلى ربه، ورضي بما يختاره له، أمدَّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حُسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه. ***ومنها:*** أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فبه، لأنه مع اختياره لنفسه، ومتى صحَّ تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدَّره.

أخرج الإمام مسلم من حديث صهيب بن سنان ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمرَه كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ".**

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء:٣٥)

وأخرج الإمام أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" عجبت من قضاء الله للمؤمن إن أصابه خير حمد وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد وصبر، فالمؤمن يؤجر في كل أمره ".**

فهذه حال النفس المطمئنة، تعلم أن الله تعالى الذي قدر لها الخير أو الضر حكيم عليم، فلا تبطر بنعمة ولا تجزع من مصيبة، فهي شاكرة في السراء صابرة في الضراء، أمرها كله خير.

ولقد ارتفعت نفوس الصحابة في ظلال هذا التصور الإيماني، وسمت أرواحهم وأرهفت ضمائرهم حتى استوت في نظرهم السراء والضراء، وتماثل لديهم الشكر والصبر.

يقول عمر -رضي الله عنه-: **لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب.**

ويقول أبو محمد الحريري: الصبر: ألا يفرق بين النعمة والمحنة، مع سكون الخاطر فيهما.

الابتلاء نعمة ومنحة:

فمن خلال ما تقدم ذكره يتضح لك جليًا أن الابتلاء نعمة ومنحة من الله سبحانه وهِبَة ربّانية من الرب الرحيم – سبحانه– لعبده الفقير المحتاج، فمن رحمته به أن عَرّضه للبلاء لتتحقق له المحبة والخيرية وتحصل له تلك المكاسب من تكفير للسيئات ورفع للدرجات، والتي لا تحصل له بدون ذلك، وإلا فإن الله غنيّ عن تعذيبه، ولا حاجة به سبحانه إلى ما يؤذي عبده، لكن حكمة الله البالغة ورحمته بعبده اقتضت ذلك، فله الحمد على ذلك كثيرًا كثيرًا.

ولكون البلاء نعمة كان الصالحون يفرحون به كما يفرح الواحد منا بالرخاء

فقد ذكر النبي ﷺ ابتلاء الأنبياء والصالحين بالمرض والفقر وغيرهما ثم قال: **" وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء ".** (أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في الصحيحة: ١٤٤)

قال وهب بن منّبه –رحمه الله– كما في سير أعلام النبلاء :٤/٣٢٧":

إن من قبلكم كان إذا أصاب أحدهم بلاء عدّه رخاء، وإذا أصابه رخاء عدّه بلاء

وقال الشاعر:

كم نعمة لا تستقلّ بشكرها لله في طيّ المكاره كامنة

(جنة الرضا: ٣/٥٢)

وقال بعض الحكماء:

رب محسود على رخاء هو شقاؤه، ومرحوم من سقم هو شفاؤه، ومغبوط بنعمة هي بلاؤه.

(العقد الفريد: ٣/١٤٥)

وقال بعض السلف: يا ابن آدم، نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب.

(مدارج السالكين: ٢/٢١٦)

وقال بعضهم: ارض عن الله في جميع ما يفعله بك، فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك، فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين، فتسقط من عينه.

(المدراج: ٢/٢١٦)

وقال سفيان الثوري –رحمه الله–: ليس بفقيه من لم يعدّ البلاء نعمة والرخاء مصيبة.

(حلية الأولياء:٧/٥٥)

وقال أبو الصلت:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي طيّ الحوادث محبوب ومكروه

وربمّا سرّني ما كنت أحذره وربما ساءني ما بتّ أرجوه

(جنة الرضا:٣/٥٢)

وقال ابن القيم –رحمه الله–: لو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبَه بشكره ولسانَه. (طريق الهجرتين ص٤٩٦)

وقال أيضًا: الآلام والأمراض والمشاقّ من أعظم النعم، إذ هي أسباب النعم..... فأعظم اللذّات ثمرات الآلام ونتائجها. (شفاء العليل ص٥٢٥)

وقال سفيان الثوري –رحمه الله–: منعه عطاء، وذلك أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختيارًا وحسن نظر.

قال ابن القيم –رحمه الله– كما في مدارج السالكين :٢/٢١٥" عقب إيراده لكلام سفيان: وهذا كما قال، فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، ساءه ذلك القضاء أو سرّه، فقضاؤه لعبده المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بليّة، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعدّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذّ به في العاجل وكان ملائمًا لطبعه. ولو رُزِق من المعرفة حظًا وافرًا لعدَّ المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذّذ بالبلاء أكثر من لذّته بالعافية، وتلذّذ بالفقر أكثر من لذّته بالغنى، وكان في حال القلّة أعظم شكرًا من حال الكثرة، وهذه كانت حال السلف، فالعاقل الراضي من يعدّ البلاء عافية، والمنع نعمة، والفقر غني، فالراضي هو الذي يعدّ نعم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبه. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: لا منافاة بين كون الشيء مصيبة باعتبار ونعمة باعتبار، فباعتبار ما يحصل به من الأذى هو مصيبة، وباعتبار ما حصل به من الرّحمة نعمة، وهذا بمنزلة شرب المريض الدواءَ الكريه فهو مصيبة باعتبار مرارته، وهو نعمة باعتبار إزالته للمرض الذي هو أشدّ ضررًا منه، وأدنى الشرّين إذا زال كان أعظمها نعمة. (تسلية أهل المصائب ص٢٢٧)

٢- البلاء يُمَحِّصُ ما في القلب:

قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الأعراف:١٥٤)

قال ابن القيم – رحمه الله –: " تمحيص ما في قلوب المؤمنين: هو تخليصه وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يخالطها بغلبات الطبائع وميل النفوس وحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة العزيز أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء، إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك. اهـ.

٣- البلاء يفرق بين الطيب والخبيث:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٩)

فالإنسان الخبيث هو الذي يحب أن يعيش في الرخاء، ولا يحب ولا يرضى بالشدة بدلًا منه، ولا باليسر عُسرًا. أما الإنسان الطيب فهو الذي يؤمن **بقوله تعالى:** ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١)

قال ابن كثير -رحمه الله-: أي لابد أن يعقد سببًا من المحنة يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر.

قال أحد السلف: الناس ما داموا في عافية فهم مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه.

كما قال تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ١-٣)

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤)

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٢)

وقد مر بنا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حيث قال: فمن ابتلاه الله بالمرِّ بالبأساء والضراء والبأس وقدر عليه رزقه[١]، فليس ذلك إهانة له، بل هو ابتلاء وامتحان، فإن أطاع الله في ذلك كان سعيدًا، وإن عصاه في ذلك كان شقيًا، كما كان مثل ذلك سببًا للسعادة في حق الأنبياء والمؤمنين، وكان شقاء وسببًا للشقاء في حق الكفار والفجار. (قاعدة في المحبة ص١٦٧)

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: ليعلم المبتلى أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الإكرام وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءه وحزبه خدمًا له وعونًا له.

١- قدر عليه رزقه: أي ضيق عليه رزقه.

٤- إظهار المحب من المبغض، أي أنه يظهر المحب لمن نزل به البلاء أو المبغض له:

فالمحبة والبغضاء تظهر من الناس إذا حل بالإنسان البلاء، فإذا حلت المصيبة بالإنسان تجد هناك من يلتف حوله من أهل الفضل والخير، ويقدمون العون ويد المساعدة، ويسخرون في ذلك الولد والمال، وربما يقدم نفسه في خدمة هذا المبتلى، فتجد الواحد منهم يسعى ويجد ويجتهد في رفع هذا البلاء أو تخفيفه بقدر المستطاع، لكن على الجانب الآخر الشامت الذي يفرح بنزول هذا البلاء، وقد كان قبل نزول البلاء بهذا المبتلى حنونًا في الظاهر مشفقًا، يلتف حوله وقت العافية والرخاء، لكن وقت البلاء ونزول المصيبة إما في الجسد أو المال ينفَضُّ عنه، بل ربما يطعن فيه ويظهر فجوره ويجاهر بشماتته.

وهكذا دومًا المصائب، تُفرز وتظهر الناس، فيكون هناك أهل الفضل والصلاح تنفعك بعد المصيبة صحبتهم، وآخرون ظهر معدنهم لتكون على حذر منهم، **فتظهر المصائب المُحب من المبغض.**

جزى الله الشدائد كُل خير عرفت بها عدِّوي من صديقي

٥- الابتلاء يرقق القلب:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦)

ففي قوله تعالى: (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ) **وجهان لأهل العلم: أحدهما:** طال عليهم الأمد في النعيم والعافية، فتنعموا نعيمًا طويلًا، وعاشوا زمانًا في العافية، فقست القلوب وتحجرت العيون، وغفلوا عن ذكر الله ﷻ وعن دعائه وعن سؤاله ورجائه ، بخلاف من أصيب ببلاء؛ تراه رقيق القلب، يبكي ويئن ويسأل ربه العافية، وكشف ما به من ضر.

أما الوجه الآخر لتفسير قوله تعالى:(فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ) أي في البعد عن استماع المواعظ والذكر، فيتمادى في الغيِّ والطغيان.

والوجه الأول له وجهته، حيث أنه من المشاهد عند نزول البلاء يحدث انكسار من العبد لله، ويرق القلب وتزول قسوته، وذلك والله خير من كثير من طاعات الطائعين، فانكسار قلب المذنب ورقته وإنابته خير وأعظم من صولة المطيع.

٦ - معرفة قيمة وقدر العافية:

فإن النعم لا تُعرف أقدارها إلا بعد فقدها، فلا يعرف نعمة إلا من ذاق مرارة ضدها، وبضدها تتميز الأشياء، فيحصل بذلك الشكر الموجب للمزيد من النعم؛ لأن ما وسع الله بالعافية وأنعم: أكثر وأعظم مما ابتلى وأسقم، فلابد أن يلجأ إلى الله في السراء والضراء، ففي الضراء حتى يكشفها عنا وفي السراء تدوم علينا وتزيد، **قال تعالى:** ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧)

وحتى شكر الله فهو نعمة من الله تحتاج منا إلى شكر ليوفقنا الله إليها. ***فهذا رسول الله*** ﷺ يعلم ***معاذ ابن جبل أن يقول في دبر كل صلاة:*** " اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ".

(أبو داود والنسائي).

ويقول الله- تعالى- حاكيًا عن سليمان عليه السلام: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩)

٧ - القيام بالعبودية على اختلاف الأحوال (استخراج عبودية الضراء):

فلابد للعبد أن يعلم أن الله تعالى يربيه على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال.

فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته، فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية، فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه: فإما أن يخرج تبرًا أحمر، وإما أن يخرج زغلًا محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقي ذهبًا خالصًا، فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه، اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك، وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟

فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه.

(طريق الهجرتين – لابن القيم ص٢٦٣،٢٦٤)

فإن الله تعالى إنما خلق خلقه للابتلاء والامتحان، فيستخرج منهم عبودية السراء وهي الشكر، وعبودية الضراء وهي الصبر، وهذا لا يتم إلا بأن يقلب الله الأحوال على العبد، حتى يتبين صدق عبوديته لله تعالى، وإذا كان المرء مؤمنًا حقًا فإن كل أمره خير، فإنه إن كان في سراء شكر فكان خيرًا له، وإن كان في ضراء صبر فكان خيرًا له.

كما قال عليه الصلاة والسلام: **" عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ".**

(رواه مسلم من حديث صهيب ﷺ)

وهناك جملة من فضائل وفوائد وحِكم الابتلاء ذكرها أهل العلم (كالعز بن عبد السلام -رحمه الله-) ومنها: -

٨- معرفة عز الربوبية وقهرها:

وأن الله ﷻ يبتلي من يشاء من عباده بما يشاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)

سبحان من يبتلي أناسًا	أحبهم والبلا عطـــــاءُ
فاصبرْ لبلوى وكنْ راضيًا	فإن هذا هو الـــــدواءُ
سَلِّم إلى الله ما قضــاهُ	ويفعلُ اللهُ ما يشـــــاءُ

لما مرض أبو بكر ﷺ فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب ؟

فقال: قد رآني الطبيب. قالوا: فأي شيء قال لك؟ قال: ﴿إِنِّي فَعَّالٌ لِمَا أُرِيدُ﴾

٩- معرفة ذل العبودية:

وإليه الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦)

فقولنا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: نحن ملك لله ﷻ والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء.

١٠- الإخـــــلاص لله -عز وجل-:

ففي أزمة البلاء يكون العبد أقرب للإخلاص، والبلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوقين، ويوجب له الإقبال على الخالق الذي لا شريك له، فالمشركون وهم مشركون حكى الله عنهم إخلاص الدعاء عند الشدائد. **قال تعالى:** ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (العنكبوت: ٦٥) فلا يتعلق العبد في هذه الحالة بالأنداد والشركاء وإنما يتعلق بالله وحده فيعلم أنه الحق وأنه المستحق لهذا التوجه والدعاء. **كما قال تعالى:** ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٦٧) فالعبد يكثر من الدعاء في الشدائد ويخلص فيه لحاجته وفقره إلى الله ﷻ.

١١- الإنـــابـــة (وهي الرجوع إلى الله -عز وجل- والإقبال عليه):

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ (الزمر:٨)

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ (الروم: ٣٣)

فالمرض يريك فقرك وعجزك وحاجتك إلى الله تعالى، وأنه لا غنى لك عنه طرفة عين، فيتعلق قلبك بالله وتقبل عليه بعد أن كنت غافلًا عنه.

قال أبي المليح -رحمه الله-: دخل صالح بن سماد على مريض يعوده وأنا معه، فلما قام من عنده قال: إنَّ رَبَكَ قد عاتبكَ فأعْتبه، أي: يقصد أن الله ﷻ يعاقبه على تقصير بدر منه، أو ذنب زل فيه، أو معصية لا تفارقه، فابتلاه بمرضه هذا كي يرجع إلى ربه يعتذر إليه ويسترضيه.

وقال شيخ الإسلام -رحمه الله-: مصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله.
(تسلية أهل المصائب ص٢٢٦)

يقول بعض السلف: إن العبد ليصاب بالمصيبة فيذكر ذنوبه، فيخرج من عينه مثل رأس الذباب دمعًا من خشية الله فيغفر الله ﷻ له.

فالمصائب تَرَدّ العبدَ الشارد إلى ربّه، وتذكّره بمولاه بعد أن كان غافلًا عنه، وتكفّه عن معصيته بعد أن كان منهمكًا فيها، فإن العبد متى كان صحيحًا معافى انهمك في ملذاته وشهواته وأقبل على دنياه فنسي مولاه، وتحيّن الشيطان غفلته فأوقعه في الشهوات والمعاصي، فإذا ابتلاه الله بمرض أو غيره استشعر ضعفه وذلّه وفقره إلى مولاه، وتذكّر تقصيره في حقه وتفريطه في جنبه، فعاد إليه نادمًا ذليلًا متضرعًا.

فقد أخرج ابن جرير -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾
(الأعراف:١٦٨)

وأن المعنى: بلوناهم بالنعم والمصائب ليرجعوا إلى طاعة ربهم، وينيبوا إليه ويتوبوا من معاصيه.

١٢- التـضـرع والدعـــاء:

قال بعض السلف: سنة الله استدعاء عباده لعبادته، بسعة الأرزاق، ودوام المعافاة؛ ليرجعوا إليه سبحانه بنعمته، فإذا لم يفعلوا ابتلاهم بالبأساء والضراء لعلهم إليه يرجعون.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٤)

فالله ﷻ يبتلي المرء وهو يحبه حتى يتضرع إليه ويرجوه ويسأله ويرجع إليه.

قال كُرْدُوسٍ الثعلبي -رحمه الله-: **" وجدت في الإنجيل إذ كنت أقرأه: إن الله ليصيب العبدَ بالأمر يكرهه وإنه ليحبه، لينظر كيف تَضَرُّعُهُ إليه ".**

وجاء في" تفسير ابن جرير الطبري -رحمه الله- :٧/ ١٩٢":

عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (الأنعام: ٤٢)

قال ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: فامتحناهم (بالبأساء) وهي شدّة الفقر والضيق في المعيشة، و(الضرّاء) وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يقول: فعلنا ذلك بهم، ليتضرّعوا إليّ، ويخلصوا لي العبادة، ويفردوا رغبتهم إليّ دون غيري، بالتذلل منهم لي بالطاعة، والاستكانة منهم إليّ بالإنابة.

ولقد ذم الله ﷻ أقوامًا ابتلاهم بالعذاب حتى يرجعوا ويتضرعوا إليه، فيرفع عنهم العذاب ويتوب عليهم إلا إن أبوا إلا المعصية والاستكاف عن الرجوع **قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٦)، **وقال تعالى:** ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف:١٦٨)

فالابتلاء ينزل ويحل بالعبد لعله يرجع إلى الله تعالى ويتضرع إليه، **قال تعالى:** ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف: ٤٨)

فكل هذه آيات دالة على أن الابتلاءات تأتي كثيرًا لإرجاع الناس إلى ربهم وإلى طريقه المستقيم، وذلك واضح من **قوله تعالى:** ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ- لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ- لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ- لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

لكن ينتفع بذلك من ينتفع ويفقه ذلك من يفقه.

يقول المنبجي كما في تسلية المصاب ص١٥١ باختصار:

وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه، ولم يستكن له وقت البلاء **كما قال تعالى:** ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٤٣)

والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه ولا يشكو إليه حاله، فإذا كان سادات الخلق وهم الأنبياء المعصومون – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- قد أثنى الله تعالى عليهم حيث شكوا ما بهم إلى الله تعالى، **قال موسى** عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:٤١) وشكوى أيوب ويعقوب- عليهما السلام- إلى الله ﷻ، وإعراض العبد عن الشكوى إلى الله من الجهل به. اهـ.

فالبلاء يُري العبدَ فقره وحاجته إلى الله- تعالى-، وأنه لا غنى عنه طرفة عين، فيتعلق قلبه بالله، ويقبل عليه بعد أن كان غافلًا عنه.

أما الدعاء

فمن فوائد الابتلاء: استخراج مكنون عبودية الدعاء. **قال تعالى:** ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ (الروم: ٣٣)

وفي الأثر: إن الله ليبتلى العبد وهو يحبه؛ ليسمع تضرعه ودعاءه.

فكم من عبد لما نزل به بلاء قام لينفض عنه غبار الغفلة ويرفع يديه بالدعاء والإنابة والتوبة متضرعًا لله

وكان بعض السلف: إذا فتح له في الدعاء عند الشدائد، لم يحب تعجيل إجابته خشية أن يقطع عما فتح له.

قيل لبعضهم: كيف تشتكي إلى من لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟ قال:

قالوا: تشكو إليه ما ليس يخفي عليه
فقلت ربي يرضى ذل العبيد لديه

أيها المبتلى... ألم يخطر ببالك أن الله ربما أصابك بهذا المرض ليسمع صوتك وأنت تدعوه؟ ويرى فقرك وأنت ترجوه؟

فمن فوائد الابتلاء: استخراج مكنون العبودية في الدعاء، فسبحانه يبتلي ليُدْعى، فإذا دُعِي أجاب.

وفي الأثر: أن الله ﷻ ابتلى عبدًا من عباده، وقال للملائكة لأسمع صوته (يعني بالدعاء والإلحاح)

وصدق من قال: **ربما صحت الأجساد بالعلل.**

فارفع يديك، وسل دمع عينيك، وأظهر فقرك وعجزك، واعترف بذلّك وضعفك

جاء في كتاب الشكر ص ١٣٢ عن وهب بن منبه –رحمه الله– قال: ينزل البلاء ليستخرج الدعاء

وقال سفيان بن عيينة –رحمه الله–: ما يكره العبد خير له مما يحب، لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه. (الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ص٢٢)

١٣- رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم:

فإن العبد إذا أحسَّ بألم الابتلاء رق قلبه لأهل البلاء ورحمهم وهذا موجب لرحمة الله.

فقد أخرج أبو داود وأحمد والترمذي: "ارحموا مَنْ في الأرض يرحَمُكُمْ من في السماءِ ".

إن انهماك المرء في حياته وانشغاله لتحصيل متاعها ومعافاته من الأمراض والعلل، كل هذا مما لا يدع لديه متسع من الوقت والفكر للبحث عن إخوانه المرضى ثم القيام بحقهم. ولهذا فمن حكمة الباري سبحانه أن يعرض المؤمن للابتلاء والأمراض والأسقام في بعض الأحيان، فيتذكر بما أصابه حال إخوانه المرضى الذين طالما غفل عنهم في حال صحته وسلامته، فيدعوه هذا إلى القيام بحقوقهم، من تعهدهم بزيارة، وقضاء حوائجهم، والتخفيف من مصابهم، ومواساتهم، والسعي في أسباب الشفاء لهم، والدعاء لهم بالعافية إلى غير ذلك من الحقوق.

١٤- البلاء يُخلِّص العبد من الكبر والعجب والفخر والخيلاء والتجبر:

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة فلولا أنه – سُبحانه وتعالى– يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء؛ لطغوا وبغوا وعتوا وتجبروا في الأرض وعثوا فيها فسادًا. فإن من شيم النفوس إذا جعل لها أمر ونهي وصحة وفراغ وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها تمردت وسعت في الأرض فسادًا، مع علمهم بما فُعل بمن قبلهم فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟

فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلى بنعمائه

كما قيل:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

(تسلية أهل المصائب ص٢١)

والإنسان بطبعه – إلا من رحم الله – ينسي إكرام المنعم الكريم–جل وعلا– ولا يشكره على إنعامه، **ولذلك قال تعالى:** ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣)

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٢)

ولذا فإن الإنسان إذا لم يشعر بنعمة ربه عليه ويوقن بأنه فقير إلى ربه، وأن الله غني عن الخلق أجمعين. وأنه هو الضعيف، وأن الله هو القوى العزيز. فإن لم يشعر العبد بذلك فسوف يُصاب بأدواء الكبر والخيلاء والتجبر لا محالة.

فمن كمال رحمة الله أن يبتلى العبد؛ ليشعر العبد بأنه عبد وأنه يستمد عزته من التذلل لله –جل وعلا– ويستمد قوته من اللجوء والتوكل على الله ويستمد أسباب حياته كلها من افتقاره إلى الملك . جل جلاله .

فإنّ النمرود لو كان فقيرًا سقيمًا فاقد السمع والبصر لما حاجَّ إبراهيم في ربه، لكن حمله بطرُ الملك على ذلك، فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:٢٤)

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (التوبة: ٧٤)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٢٧)

وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: ٦،٧)

أي إن الإنسان إذا رأى نفسه مستغنيًا عن الناس بماله، أو بصحته، أو بعشيرته، أو بمنصبه وجاهه، بدأ في الطغيان عليهم، وكلما زاده الله من النعم، ازداد طغيانا.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ (الإسراء: ٨٣)

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٤٩)

فإذا أراد الله ﷻ بعبده خيرًا سقاه دواء الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستخرج منه الأدواء المهلكة، حتى هذبه ونقاه وصفاه وأهَّله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته، ورقاه أرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته"

(تسلية أهل المصائب ص٢١)

كتب بعض الكتَّاب إلى صديق له في محنة لحقته: إن الله يمتحن العبد ليكثر التواضع له، والاستعانة به، ويُجدد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويأخذ بيده في شدته؛ لأن دوام النعم والعافية يبطران الإنسان، حتى يعجب بنفسه، ويعدل عن ذكر ربه.

وقد مر بنا في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦)

وجهان لأهل العلم: أحدهما: طال عليهم الأمد في النعيم والعافية، فتنعموا نعيمًا طويلًا، وعاشوا زمانًا في العافية، فقست القلوب وتحجرت العيون، وغفلوا عن ذكر الله ﷻ وعن دعائه وعن سؤاله ورجائه ، هذا بخلاف من أصيب ببلاء؛ تراه رقيق القلب، يبكي ويئن ويسأل ربه العافية، وكشف ما به من ضر.

قال ابن القيم: لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا أو أجلًا، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في بعض الأحيان بأنواع من أدوية مصائب تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلى بنعمائه، كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا، وبغوا، وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواء من البلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذّبه ونقّاه وصفّاه أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه. اهـ.

(زاد المعاد: ٤/ ١٩٥ – عدة الصابرين ص ١٦١ – الشكر لابن أبي الدنيا ص ١٣٢)

١٥ - من فوائد الابتلاء لمن صبر عليه: أنه يدخل في عداد الصابرين فيحظى بفضائلهم:

ذكر ابن القيم -رحمه الله- في كتابه عدة الصابرين في فضل الصبر على البلوى فقال:

إن الله سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو وصارمًا لا ينبو وجندًا غالبًا لا يهزم، وحصنا حصينًا لا يهدم، فهو والنصر أخوان شقيقان، وقد مدح الله في كتابه الصابرين.

- **وأخبر أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب:** ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)

- **وجعل الصابرين يفوزون بمعيته ـ سبحانه ـ فقال تعالى:** ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)

- وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين

فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤)

- **وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فقال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)

- **وعلق النصر بالصبر والتقوى، فقال:** ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥)

- **وأخبر عن محبته لأهله وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين فقال تعالى:** ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)

- **ولهم البشرى من الرب الكريم، حيث قال في كتابه الكريم:** ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ(٣٤)الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الحج: ٣٤ ، ٣٥)

- **وأخبر بمضاعفة أجر الصابرين فقال تعالى:**

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (القصص: ٥٤)

وقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ . . . إلى قوله تعالى . . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥)

- **وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار من نصيب الصابرين، فقال تعالى:**

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون: ١١١)

- وأخبر أن ملائكته تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٢ – ٢٤)

وأخبر أن للصابرين الغرف في أعلى درجات الجنة.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٨ ، ٥٩)

فاعلم ... أن الصبر هو الدواء الناجع لكل بلية، وهو الترياق النافع لكل رزية، وهو السلاح الماضي الذي لا ينبو ولا يثلم، وهو الجنة الحصينة التي لا تهدم، ويكفي أن صاحبه يظفر بمعية الله، ولو لم يكن في الصبر من فضيلة إلا الفوز بمحبة الله لكفي بها فضيلة **فقد قال تعالى:** ﴿ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾
(آل عمران: ١٤٦)

ولو لم يكن من فضل الصبر إلا قول النبي ﷺ: **"... ومن يتصبر يُصبره الله وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر".** (أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه)

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	**أبشر بخير فإن الفارج الله**
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه	**لا تيأسن فإن الكافي الله**
إذا بُليت فثق بالله وارض به	**فإن الذي يكشف البلوى هو الله**
الله يُحدث بعد العسر ميسرة	**لا تجزعن فإن الصانع الله**
والله ما لك غير الله من أحدٍ	**فحسبك الله في كلٍ لك الله**

١٦- ومن فوائد الابتلاء: أن الله يكفر به السيئات، ويغفر به الزلات:

نحن بشر ومن طبيعة البشر الوقوع في الذنب وهذا لا يسلم منه أحد إلا الأنبياء فهم معصومون.

فقد أخرج ابن ماجه والترمذي بسند حسن عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" كل ابن آدَمَ خطاءٌ وخيرُ الخطائينَ التوَّابُونَ ".**

وصدق القائل حيث قال:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

الجواب: لا أحد.

فمن أراد الله به خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا، فيبتليه في جسده أو ماله أو ولده أو في أهله؛ حتى يطهره من الذنوب فيوافيه يوم القيامة ولا ذنب له، وهذا هو عين الخير.

فقد أخرج الترمذي من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ".**

(صحيح الجامع:٣٠٨)

قال الطيبي -رحمه الله- كما في شرح المشكاة (٣/ ٣١٠): قوله ﷺ: **" وإذا أراد الله بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه"** أي: أمسكه عنه لما يستحقه بسبب ذنبه من العقوبة، والمعنى: لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها، فيستوفى حقه من العقاب. اهـ.

فمن لم يبتل في هذه الحياة الدنيا بأي نوع من أنواع البلاء فهو على خطر كبير.

فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد بسند حسن عن أبي هريرة ﷺ قال: **دخل أعرابيٌ على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: أخذتُك أمُّ مِلْدَم قط ؟ قال: وما أمُّ مِلْدَم ؟ قال: حرّ يكون بين الجلد واللحم، قال: ما وجدتُ هذا قط، قال: فهل أخذك هذا الصداع ؟ قال: وما هذا الصداع؟ قال: عرق يضرب على الإنسان في رأسه، قال: ما وجدت هذا قط، فلما ولّى، قال النبي ﷺ: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا ".**

(صحيح الأدب المفرد) (وقال أحمد شاكر -رحمه الله- في تعليقه على المسند: إسناده صحيح).

تنبيه:

وليس معنى هذا الحديث أن كل من لم يبتل يكون من أهل النار ولابد، ولكن النبي ﷺ أراد إعلام أمته أن المرء لا يكاد يتعرى عن الذنوب والمعاصي، وأن النار تجب له بذلك إن لم يتفضل الله ﷻ عليه بالعفو والمغفرة، وقد جعل الله الأمراض والمصائب وسائر أصناف البلاء سببًا للعفو والمغفرة.

قال ابن حبان -رحمه الله- كما في صحيحه: ٧/ ١٧٩ " في شرح قوله ﷺ:

"من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا" لفظة إخبار عن شيء مرادها الزجر عن الركون إلى ذلك الشيء وقلّة الصبر على ضدّه، وذلك أن الله - جل وعلا - جعل العلل في هذه الدنيا والغموم والأحزانَ سبب تكفير الخطايا عن المسلمين، فأراد ﷺ إعلام أمته أن المرء لا يكاد يتعرى عن مقارفة ما نهى الله عنه في أيامه ولياليه، وإيجاب النار له بذلك إن لم يتفضل عليه بالعفو، فكأن كل إنسان مرتهن بما كسبت يداه، والعلل تكفر بعضها عنه في هذه الدنيا، لا أنّ من عوفي في هذه الدنيا يكون من أهل النار". اهـ.

ومن المعلوم كما مر بنا أن العبد يبتلى في هذه الحياة الدنيا بسبب ذنوبه، وما اقترفته يداه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠)

وأخرج الترمذي والطبراني في المعجم الصغير من حديث البرّاء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

" ما اختلج [1] عرقٌ ولا عينٌ إلا بذنبٍ، وما يدفعُ اللهُ عنه أكثر ". (صحيح الجامع: ٥٥٢١)

وفي رواية: " وما يعفو الله عنه أكثر ".

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة.

فما زالت عن العبد نعمة، ولا حلت به نقمة، وتحول الله له من حال العافية إلى حال البلاء إلا بكسبه وما صنعت يداه.

وقال زيادُ بن الربيع: " قلت لأُبيِّ بن كعب آيةٌ في كتاب الله قد أخذتني: قال: ما هي؟ قلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣) قال: ما كنتُ أراك إلا أفقهُ مما أرى، إنَّ المؤمن لا تصيبه عَثرةُ قدم ولا اختلاج عِرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر".

وعن الحسن -رحمه الله-: " أن عمران بن حصين رضي الله عنه ابتلى في جسده فقال: ما أراه إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر وتلا: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠)

فإذا أراد الله بعبده خيرًا عجل له العقوبة وابتلاه في الدنيا حتى يوافيه يوم القيامة ولا ذنب عليه، لأن المراد بتكفير الذنب: ستره أو محو أثره المترتب عليه من استحقاق العقوبة.

قال ابن عبد البر -رحمه الله- كما في" التمهيد: ٢٣/ ٢٦ ":

الذنوب تكفرها المصائب والآلام والأمراض والأسقام وهذا أمر مجمع عليه. اهـ.

وكان بعض السلف يقول: " لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس ".

١ـ الاختلاج: الحركة والاضطراب (النهاية:٢/ ٦٠)

فالابتلاءات يكفر الله بها الذنوب والأدلة على ذلك كثيرة ومنها:

١- ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ:

" ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها ".

٢- أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :"...ما من مسلمٍ يُصيبُهُ أذى شوكةٍ فما فوقها إلا حطَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ خطاياهُ كما تَحُتُّ الشجرةُ ورقها ".

- وفي رواية:"... ما مِن مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذًى، مَرَضٌ فَما سِواهُ، إلَّا حَطَّ اللَّـهُ له سَيِّئاتِهِ، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ ورَقَها ".

- وفي رواية:"... ما مِن مُسلِمٍ يُصِيبُه أذًى، مَرَضٌ فما سواه، إلَّا كفَّر اللهُ بها سيِّئاتِه كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَها ".

٣- وأخرج ابن أبي الدنيا عن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "...ما من مسلمٍ يُصيبُهُ أذى في جسده إلا كان كفارة لخطاياهُ ". (صحيح الترغيب والترهيب:٣٤١٦)

٤- وأخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" ما يُصيب المسلم من نصب[١]، ولا وصب [٢]، ولا هم [٣]، ولا حَزَن [٤]، ولا أذى، ولا غم [٥]، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر اللهُ من خطاياه".

٥- وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: "ما يصيب المؤمنَ من وصبٍ، ولا نصبٍ، ولا سقمٍ، ولا حزنٍ، حتى الهمِّ يُهَمُّهُ إلا كفر به من سيئاته ".

٦- وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" ما من شيء يُصيب المؤمن من نصبٍ، ولا حَزَنٍ، ولا وصبٍ، حتى الهَمَّ يَهمُّه، إلا يكفرُ الله به عنه من سيئاتِهِ ".

(صحيح الجامع: ٥٧٢٥)

٧- وأخرج الحاكم وابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

" وصب المؤمن كفارةٌ لخطاياه ". (صحيح الجامع:٧١٠٩)

٨- وأخرج الإمام أحمد عن معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" ما من شيء يُصيب المؤمن في جسده يؤذيه، إلا كفر الله عنه من سيئاته ". (صحيح الجامع:٥٧٢٤)

٩- وأخرج البخاري من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما -أنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ علَى أعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، قَالَ: وكانَ النبيُّ ﷺ إذَا دَخَلَ علَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: لا بَأْسَ، طَهُورٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ فَقَالَ له: لا بَأْسَ طَهُورٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ: قُلتُ: طَهُورٌ؟ كَلَّا، بَلْ هي حُمَّى تَفُورُ، أوْ تَثُورُ، علَى شيخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ القُبُورَ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: فَنَعَمْ إذًا ".

١ـ نصب: تعب (النهاية:٦٢/٥)

٢ ـ وَصَب: وجع أو مرض، وقيل: هو الوجع اللازم، ومنه قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} (الصافات:٩) أي: لازم ثابت (ترتيب القاموس:٦١٨/٤)

٣ ـ الهم: يكون على مكروه يتوقع في المستقبل يهتم به القلب.

٤ ـ الحزن: على مكروه ماض من فوت محبوب أو حصول مكروه إذا تذكره أحث له حزنًا.

٥ ـ الغم: يكون على مكروه حاصل في الحال يوجب لصاحبه الغم. (شفاء العليل ص ٥٧٣)

الشاهد هو قول ابن عباس-رضي الله عنهما- **وكانَ النبيُّ ﷺ إذَا دَخَلَ علَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: لا بَأْسَ، طَهُورٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ.**

١٠- *وأخرج البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-* **أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ، دَخَلَ علَى أُمِّ السَّائِبِ، أَوْ أُمِّ المُسَيَّبِ فَقالَ: ما لَكِ؟ يا أُمَّ السَّائِبِ، أَوْ يا أُمَّ المُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ[1]؟ قالَتْ: الحُمَّى، لا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا، فَقالَ: لا تَسُبِّي الحُمَّى، فإنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كما يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ".**

١١- *وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي أُمامةَ ﷺ عن النبي ﷺ قال:* **" ما من عبدٍ يَصرعُ صرعةً من مرضٍ، إلا بعثه الله منها طاهرًا ".** (صحيح الجامع: ٥٧٤٣)

قال المناوي -رحمه الله- في فيض القدير: ٥/٤٨٧ ، ٤٨٨ ":

ما من عبد يُصرع من مرض إلا بعثه الله منها طاهرًا، لأن المرض تمحيص للذنوب والمؤمن ملوثٌ بالشهوات، متوسخ بالخطيئات، فإذا أسقمه الله طهّره وصفّاه، كالفضة تلقي في كيرها فينفخه يزول خبثها ويصفو دنسها فتصلح للضرب، وظاهر الحديث الشمول لجميع الذنوب لكن خصه الجمهور بالصغائر

وقال ابن حجر -رحمه الله-:

ويحتمل أن معنى الأحاديث المؤذنة بالتعميم أن ذلك صالح لتكفير الذنوب فيكفر به ما شاء من الذنوب، فما يكون كثرة التكفير وقلته باعتبار شدة المرض وخفته، ثم المراد بتكفير الذنوب شدة أو محو أثره المترتب عليه من استحقاق العقوبة.

١٢- ***وأخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال:*** **" ما من مصيبةٍ تُصيب المسلمَ إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكةَ يُشَاكُها ".**

- **المصيبة:** ما نزل بالإنسان من مكروه.

- **"إلا كفر الله بها عنه"** أي: يكون ذلك عقوبة بسبب ما صدر منه من المعصية، ويكون ذلك سببًا لمغفرة ذنبه، فبذلك يحصل الأمرين معًا حصول الثواب ورفع العقاب.

وفي رواية لمسلم: **" - لا تُصِيبُ المُؤْمِنَ شَوْكَةٌ فَما فَوْقَها، إلَّا قَصَّ اللَّهُ بها مِن خَطِيئَتِهِ ".**

- **إلَّا قَصَّ اللَّهُ بها مِن خَطِيئَتِهِ:** أي: نقص وأخذ.

١٣- ***وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*** **" ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة ".**

(صحيح الجامع:٥٨١٥) (الصحيحة:٢٢٨٠)

١- تُزَفْزِفِينَ: أي ترددعين.

- ***وعند البخاري في الأدب المفرد بلفظ:*** " لا يزالُ البلاءُ بالمؤمن أو المؤمنة في جسدهِ ومالهِ وولدِهِ حتى يلقى اللهَ ﷻ وما عليه من خطيئةٍ ".

- ***وعند الإمام أحمد وابن أبي شيبة بلفظ:*** " لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة"

١٤- وأخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي الدنيا عن أمّ سلمة-رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ما ابتلى اللهُ عبدًا ببلاءٍ وهو على طريقةٍ يَكْرَهُهَا، إلا جعل الله ذلك البلاء كفارةً وطُهُورًا، مَا لَمْ يُنْزِلْ ما أصَابَهُ [من البلاء] بغير اللهِ، أو يَدَعُو غَيْرِ اللهِ في كَشْفِهِ ".

(الصحيحة: ٢٥٠٠) (صحيح الترغيب والترهيب:٣٤٠١)

١٥- وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى من حديث شداد بن أوس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" أنَّ اللهَ يقول: إذا ابتليتُ عبدًا من عبادي مؤمنًا فحمدني على ما بليتُه؛ فإنه يقومُ من مضجعِه ذلك كيوم ولدتْه أمُّه من الخطايا، ويقولُ الربُّ ﷻ للحفَظةِ: أنا قَيَّدتُ عبدي هذا وابتليتُه، فأَجْروا له ما كنتُم تجْرونَ له قبل ذلك من الأجر وهو صحيحٌ ".(صحيح الجامع: ٤٣٠٠)

١٦- وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: " لما نزلت ﴿ مَنۡ يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾[1] بلغت من المسلمين مبلغا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: " قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها [2]، أو الشوكة يشاكها ".

١٧- وأخرج البخاري في "الأدب المفرد" وابن حبان والطبراني في الأوسط عن عائشة-رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: " إذا اشتكى المؤمنُ؛ أخلصه اللهُ من الذُّنوبِ كما يُخلِّصُ الكيرُ خَبَثَ الحديدِ". (الصحيحة:١٢٥٧) (صحيح الجامع:٣٤٤)

ولقد روي الإمام أحمد عن الوليد بن مسلم الأوزاعي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال:

" ما أحب أن يهون عليّ سكرات الموت، فإنه آخر ما يكفر عن المرء المسلم ".

١٨- وأخرج الترمذي وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"... ما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة ". (صحيح الجامع:٩٩٢)

يقول ابن مِجْلزٍ -رحمه الله-: "إن الله يبتلي العبد بالبلاء حتى ما يبقى عليه ذنب ".

يقول أبو بكر الصديق ﷺ: يكفر الله عن المسلم حتى النكبة وانقطاع شسعه، والبضاعة يضعها في كم قميصه فيفقدها فيجدها في ضبنه- أي: تحت إبطه-.

فسبحان الملك!! كل شيء من الأوجاع والهموم والأحزان يؤجر عليها المسلم، حتى مجرد الفزع على فقدان المتاع حتى يجده.

١- سورة النساء:١٢٣.

٢- حتى النكبة ينكبها: هي مثل العثرة برجله، وربما جرحت إصبعه، وأصل النكب: الكب والقلب.

يقول ابن القيم -رحمه الله- كما في مدارج السالكين: لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تفِ بطهرهم، طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها (حسنات ماحيات)، ونهر المصائب العظيمة المكفرة. (مصائب مكفرات) فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فورد القيامة طيبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع (نهر الجحيم).

وقال أيضا -رحمه الله- كما في زاد المعاد: الإنسان الخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والإنسان الطيب يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه. وقد يكون في الشخص مادتان فأيها غلب عليه كان أهلًا لها، فإذا أراد الله به خيرًا طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة، فيوافيه يوم القيامة مطهرًا فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار. فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح والحسنات الماحيات والمصائب المكفرات حتى يلقى الله وما عليه خطيئة. ويمسك عن الآخر مواد التطهير فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة، ومادة طيبة وحكمته تعالى تأبى أن يجاوره أحد في داره بخباثته فيدخله النار طهرة له. فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث صلح حينئذ لجواره ومساكنة الطيبين من عباده. اهـ.

١٧ - تحصيل الأجر والثواب:

١ - *فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال:* " **ليَوَدَّنَّ أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قُرِضَتْ بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء** ". (الصحيحة: ٢٢٠٦)

- *وفي رواية أخرى:* "**يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهلُ البلاءِ الثواب لو أن جلودهم كانت قُرِضَتْ في الدنيا بالمقاريض**"

٢ - *وأخرج البزار من حديث أبي هريرة ﷺ قال :* **جاءت امرأة بها لمم إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: ادع الله لي أن يشفيني قال:"إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت فاصبري، ولا حساب عليك، قالت: بل أصبر ولا حساب علي" .**

ويروي أن بعض العابدات (وهي امرأة فتح الموصلي) عثرت فانقطع أصبعها فضحكت فقيل لها: أتضحكين وقد انقطع أصبعك؟!! قالت: أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أنْستني مرارة قطعها.

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **من يرد الله به خيرًا يصيب منه** ".

نقل الحافظ -رحمه الله- في" الفتح: ١٠/١١٣ ": عن أبي عبيد الهروي -رحمه الله- أنه قال في الحديث السابق: معناه يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها.

وكان شقيق البلخي -رحمه الله- يقول: من يرى ثواب الشدة، لا يشتهي الخروج منها.

- **وليعلم المبتلى أنه كلما ازداد البلاء ازداد الأجر.**

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث محمود بن لبيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء...**". (صحيح الجامع:٢١١٠)

١٨ - الرفعة في الدرجات:

قد يكون عمل الرجل لا يبلغه الدرجة التي أعدها الله له في الجنة، فيبتليه ليرفع درجته في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

١ – ***فقد أخرج ابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:*** " إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله فما يبلغها بعملٍ، فلا يزالُ الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها ".

(صحيح الجامع: ١٦٢٥) (الصحيحة: ٢٥٩٩)

٢ – ***وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبراني في الكبير والأوسط بسند صحيح عن محمد بن خالد عن أبيه عن جده وكانت له صحبةٌ قال: قال رسول الله ﷺ:*** " إن العبد إذا سبقتْ له من الله منزلةٌ فلم يَبْلُغْها بعمله، ابتلاهُ الله في جسده، أو ماله، أو في ولدِهِ، ثم صَبَّرَهُ على ذلك، حتى يُبْلغَهُ المنزلَةَ التي سبقتْ لهُ من الله تعالى ". (صحيح أبي داود:٢٦٤٩)

٣ – ***وأخرج أبو يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*** "إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله ، فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها ". (الصحيحة:٢٥٩٩) (صحيح الجامع:١٦٢٥)

– ***وفي رواية:*** " إن العبد ليكون له عند الله المنزلة الرفيعة فما ينالها بعمل فما يزال..". الحديث

٤ – ***وأخرج الإمام مسلم عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ:*** " لا تُصيب المؤمنَ شوكةٌ فما فوقها إلا نَقَص الله بها من خطيئته، –***وفي رواية:*** " إلا رفعه الله بها درجةً وحط عنه بها خطيئتهُ ".

٥ – ***وأخرج الإمام أحمد وابن حبان بسند صحيح عن عائشة – رضي الله عنها –:*** "أن رسول الله ﷺ طرَقَهُ وجعٌ، فجعل يشتكي ويتقلب على فراشه، فقالت له عائشة: لو صنع هذا بعضنا لوَجَدْتَ[1] عليه، فقال النبي ﷺ إن الصالحين يُشدّد عليهم، وإنه لا يصيب مؤمنًا نكبةٌ من شوكةٍ فما فوق ذلك إلا حطت عنه بها خطيئة، ورفع له بها درجة ". (صحيح الجامع: ١٦٦٠) (الصحيحة:١٦١٠)

٦ – ***وأخرج الإمام مسلم عن الأسود قال:*** " دخل شبابٌ من قريش على عائشة –رضي الله عنها– وهي بمنى وهم يضحكون، فقالت: ما يُضحِكُكم ؟ قالوا: فلانٌ خَرَّ على طُنُبٍ[2] فُسطاطٍ[3]، وكادتْ عُنُقُهُ أو عَينُهُ أن تذهب، فقالت: لا تضحكوا، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ قال : ما من مسلم يُشاكُ بشَوكَةٍ فما فوقها إلا كُتبَت لهُ بها درجةً ومحيت عنهُ بها خطيئةٌ ".

---

١ ـ وَجَدْتَ: حزنت

٢ ـ الطنب: هو الحبل الذي يشد به الفسطاط.

٣ ـ الفسطاط: بيت من الشعر، وهو الخباء ونحوه.

في هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين، فإنه قلما ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشاقها. وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء.

١٩ - حصول رضا الله - تعالى -:

فكما أن الابتلاء تمحيص للذنوب والسيئات وبلوغ الدرجات العالية في الجنات وأعلى من ذلك كله حصول – رضا الله تعالى – الذي هو أفضل من الجنة ونعميها المقيم.

كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:٧٢)

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا** ".

فكما أن المبتلى رضي بالبلاء فإن الله تعالى يرضى عنه.

وأخرج الترمذي من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط** ".

يقول ابن القيم –رحمه الله –: إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء (الأمراض) التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه. اهـ.

وقال الشيخ الألباني–رحمه الله– : وهذا الحديث يدل على أمر زائد على ما سبق، وهو أن البلاء إنما يكون خيرًا، وأن صاحبه يكون محبوبًا عند الله تعالى، إذا صبر على بلاء الله تعالى، ورضي بقضاء الله ﷻ .اهـ.

٢٠- دخول جنة الرحمن:

أخرج الإمام مسلم من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" حُفت الجنة بالمكارة وحُفت النار بالشهوات ".**

جاء في" فتح الباري: ١١/ ٣٢٠": والمكاره: هي كل ما تكرهه النفس ويشق عليها، وهذا يتناول مجاهدة النفس في القيام بالطاعات واجتناب المعاصي، والصبر على المصائب والتسليم لأمر الله فيها.

ولهذا كان جزاء من فقد بصره ثم صبر على هذا المكروه وهذا البلاء الذي تكرهه النفس، كان جزاؤه الجنة.

- *فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:* **" إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدي بِحَبِيبَتَيْه[١] فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ ".**

- *وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*

" إن الله يقول: إذا أخذت كريمَتَيْ عبدي في الدنيا، لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة ".

- *وأخرجه ابن حبان وأبو يعلى بسند صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله*ﷺ : "يقول الله تعالى: إذا أخذتُ كَرِيمَتَي عبدي فَصَبَرَ واحتسب[٢] لم أرض له ثوابًا دُونَ الجنةَ ".

يا له من جزاء عظيم وأجر كبير ولا يكون إلا لمن صبر على هذا البلاء الكبير والمصيبة العظيمة، فيا من فقدت نعمة البصر! احتسب الأجر عند الله، واحمده سبحانه أن أخذ منك نعمة البصر وأعطاك بدلًا منها جنة عرضها السماوات والأرض، واحمده كذلك على أنه لم يأخذ منك نعمة البصيرة.

- *فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ:* **" ما من مسلمَيْنِ يموت لهما ثلاثةُ أولادٍ، لم يبلغوا الحِنْثَ[٣]، إلا أدخلهما الله بفضل رحمته إياهم الجنة، يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون: حتى يدخلَ أبوانا: فيقالُ: ادخلوا الجنَّةَ أنتم وأبواكم ".** (صحيح الجامع:٥٧٨٠)

- *وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:* **" يقول الله -عز وجل-: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة ".**

يقول ابن الأثير: الصفي: الخليل والصديق يختاره الإنسان ويصطفيه.

يا له من جزاءٍ! فعندك اللهم نحتسب أصفياءنا وأصدقاءنا وأحبابنا وآباءنا وأمهاتنا، وأنت حسبنا ونعم الوكيل وإنا لله وإنا إليه راجعون.

١- بحبيبتيه: أي عينيه، وتسميتهما بذلك لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه.
٢- فصبر واحتسب: أي حبس نفسه عن الجزع والشكوى، وادخر ثواب مصيبته عند الله.
٣- الحنث: الإثم والذنب، والمعني: أنهم لم يبلغوا من العمر سنًا تكتب عليهم فيه الذنوب.

وقال الحافظ في الفتح :١١/٢٤٧": وأصل الحِسبة بالكسر: الأجرة، والاحتساب طلب الأجر من الله تعالى خالصًا، واستدل بهذا الحديث ابن بطال على أن من مات له ولدٌ واحد يلتحق بمن مات له ثلاثة وكذا اثنان". اهـ.

- وأخرج الإمام أحمد من حديث معاوية بن قرة بن إياسٍ عن أبيه: **" أن رجلًا كان يأتي النبيﷺ ومعه ابن له، فقال النبيﷺ : أتحبُهُ؟ فقال: نعم يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه. ففقده النبيﷺ فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا رسول الله مات، فقال النبيﷺ لأبيه: ألا تحب ألا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته عليه ينتظرك؟ فقال رجل: يا رسول الله، أَلَهُ خاصةً أم لكلنا؟ فقال ﷺ:" بل لكُلِّكُم ".**

بيت في الجنة لمن صبر على موت الولد:

أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **" إذا مات ولد العبد ؛ قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتُم ثمرة فؤاده[١]؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدى ؟ فيقولون: حمدك واسترجع[٢] فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد[٣] ".** (صحيح الجامع:٧٩٥)

فيا لها من بُشري لكل من مات ولده فاحتسبه ... فيأتي يوم القيامة فيجد أن الله . جل وعلا . الذي وسعت رحمته كل شيء قد أنعم عليه ببيت الحمد في الجنة.

ويا لها من بشارة بالموت على الإيمان؛ لأن الله إذا أمر ببناء بيت لأحد من عبيده لابد لذلك العبد من سكني هذا البيت في يومٍ من الأيام.. وهذا دليل علي أن هذا العبد سيموت على الإيمان.

- وأخرج البخاري ومسلم ن عطاء بن رياح قال: قال لي ابن عباس - رضي الله عنهما-:

ألا أريك امرأةً من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، فقال: هذه المرأة السوداء. أتت النبي ﷺ فقالت: أُصرعُ[٤] وإني أتكشَّف فادع الله تعالى لي، فقال النبي ﷺ: إن شئت صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله تعالى أن يعافيك"، فقالت: أصبر، ثم قالت: إني أتكشَّف فادع الله تعالى لي أن لا أتكشف، فدعا لها ".

فهذه المرأة صابرة عاقلة، لما بزغ لها فجر الجزاء الباقي هان عليها ظلام البلاء الفاني، فلا عيش إلا في جنات عدن ولا مستراح إلا في ظل طوبى، فصبرًا على اللأواء والموعد الجنة.

١- ثمرة فؤاده: قال ابن الأثير: يقال للولد الثمرة؛ وذلك لأن الثمرة هي ما تنتجه الشجرة وكذلك الولد من الرجل ما ينتجه.
٢- استرجع: أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.
٣- وقال القاري كما في تحفة الأحوذي (١٠١/٤):
أضاف البيت إلي الحمد الذي قاله عند المصيبة لأنه جزاء ذلك وما وعده الله به في كتابه وعلى لسان حبيبه أمر مقطوع به محقق إن شاء الله.
٤- أُصْرع: والصرع هو الطرح بالأرض، والصرع علة معروفة.

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك